أبو الفضل بن العميد بين السياسة والأدب

د. حسان بشير حسان حامد*
د. حمزة السر محمد الحسن**

* أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية، جامعة بحري، السودان.
** أستاذ مشارك، قسم التاريخ، جامعة بحري، السودان .

ملخـــص

تناولت هذه الدراسة مجالين من مجالات أبي الفضل ابن العميد، هما: أعمال الوزراة وأساليب الحكم، إلى جانب نتاجه الأدبي النثري والشعري. وذلك بهدف الكشف عن خصاله السياسية والعسكرية، وتقييم نثره وشعره، وإيضاح مكانته السياسية والأدبية. انتهجت الدراسة المنهج الوصفي، وخلصت إلى عدد من النتائج من أهما: أن لابن العميد معرفة تامة بإدراة شؤون الوزارة، وخبرة واسعة بسياسة الجند وقيادة الجيوش، وبصيرة نافذة في خطط الحروب ومكائدها. وأن رسائله الرسمية تُظهر قوة شخصيته وتصرفه الواسع في إدارة أمور الحكم. وأن أجود ما أنتجه من نثره وشعره كان مجال الإخوانيات. وأن لذيوع شهرته في مجال الإنشاء والترسل أثر كبير في طمس شخصيته في المجالات الأخرى. وتوصي هذه الدراسة باستقصاء جوانب أخرى من شخصية ابن العميد، كالنقد الأدبي مثلاً. وإجراء مزيد من الدراسات حول الأمراء والوزراء البويهيين الذين جمعوا بين السياسة والعلم والأدب.

Abstract

This study examined two areas of Abu Al-Fadl Ibn Al-Ameed, they are: The work of the Ministry and methods of government, besides his literary product "prose and poetry". The study aims to discover his political and militarisms qualities, assessing his prose and poetry, and clarify his political and literary standing. The study uses the descriptive approach, and reaches many of findings, the most important of which are: Ibn Al-Ameed has fully knowledgeable about managing the affairs of the Ministry, and extensive experience in the policy of soldiers and the command of armies, a correct view of war plans and machinations, that his official messages demonstrate the strength of his personality and his broad behavior in managing matters of governance, the finest poetry and prose he produced was the field of friends. and that his widespread reputation in the field of composition and art of letter writing had a great effect in obscuring his personality in other fields. This study recommends investigating other aspects of Ibn Al-Ameed`s personality, such as literary criticism, and conducting more studies on the Bouyah princes and ministers who combined politics, science and literature.

مقدمـــة

اجتمع في أبي الفضل بن العميد ما لم يجتمع في غيره، فقد اجمع مترجموه على أنه كان سياسياً محنكاً، ووزيراً حسن التدبير لشؤون الممالك والدول وخطط الحرب، وكاتباً بليغاً من أبرع كتاب عصره، وأديباً مبرزاً من العلماء بالأدب والشعر، فإنه حفظ من أشعار العرب ما لم يحفظ غيره مثله، وشاعراً رقيقاً له شعر مشهور، وعالماً متفرداً ملماً بضروب مختلفة من العلوم مثل النجوم والهيئة والفلسفة والتاريخ والأخبار. وقد غطت شُهرته في الكتابة والترسل على جوانبه الأخري، وبسبب ذلك كان فيه القول المأثور: بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد[1]. ولهذا قال عنه مترجموه في العصر الحديث: "أديب كاتب، شاعر، لغوي، حكيم، فلكي، سياسي، من الوزراء"[2]. وقال آخر: "عالم، أديب، فاضل، كاتب ومن كبار كتاب عصره، شاعر، وزير، فصيح، بليغ"[3].

مشكلة الدراسة:

تعتني هذه الدراسة بمجالين اثنين من المجالات التي تميّز بها ابن العميد؛ أولهما: الوزراة وأساليب الحكم وفنون السياسة، فقد كان ابن العميد صدر وزراء دولة بني بويه، وله فضل في توطيد دعائم حكمهم وتثبيت أركان ملكهم. وثانيهما: نتاجه الأدبي النثري والشعري، فقد كان ابن العميد من كبار الأدباء الذين أسهموا في النهضة العلمية والأدبية في القرن الرابع الهجري.

أهداف الدراسة:

1. الكشف عن خصاله السياسية والعسكرية.
2. تقييم نتاجه النثري والشعري.
3. إيضاح مكانته السياسية والأدبية.

(1) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: د.مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م، ج3، ص183. وابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، الكامل في التاريخ، راجعه وصححه: د. محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م، ج7، ص320.

(2) كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993م، ج3، ص260.

(3) الشبستري، عبد الحسين، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، المكتبة الأدبية المختصة، 1420هـ، ج4، ص172.

منهج الدراسة:

المنهج المناسب لمثل هذه الدراسة هو المنهج الوصفي؛ لأنه يساعد على استقصاء الظاهرة المبحوثة وتشخيصها وتحديد العلاقة بينها وبين الظواهر الأخرى، كما أنه يمكن من تحليل الظاهرة كيفياً أو كمياً، بغية الوصول إلى تفسيرات وتقييمات معقولة بصددها.

الدراسات السابقة:

أ- دراسة المرايطة (2008م):

تناولت هذه الدراسة بصورة أساسية رسائل ابن العميد، وقامت بتحليل عدد كبير منها. ونبعت أهمية الموضوع من أن هذه الدراسة هي الأولى من نوعها التي تهتم بدراسة رسائل ابن العميد على حد قول الدارس. وهدفت الدراسة إلى إحياء نصوص من الأدب العربي التي لم تأخذ حظها من الدراسة. كما هدفت إلى إبراز دور ابن العميد في تطور الرسائل، وتسليط الضوء على آراء النقاد والأدباء فيه. ولم يوضح الباحث المنهج الذي اتبعه في الدراسة. وخلصت الدراسة إلى أن السجع أصبح الثوب المطرز الذي يطرز الرسائل في القرن الرابع الهجري، وأن معاصري ابن العميد شهدوا له بسعة العلم على الرغم من اختلافهم في التعبير عن صفاته الشخصية. وأوصت الدراسة بدراسة نتاج ابن العميد الشعري، إذ يرى الدارس أن انتاجه الشعري المبعثر لو جمع لصلح أن يشكل ديوان شعر. وتلتقى دراسة المرايطة مع الدراسة الحالية في تناولهما لرسائل ابن العميد لكن تختلفان في أن دراسة المرايطة جعلت كل اهتمامها مركزاً على الرسائل. ولقد أفادت الدراسة الحالية من دراسة المرايطة في عرضها الجيد وتحليلها لرسائل ابن العميد.

ب- دراسة العلي (2001م):

تناولت هذه الدراسة فن الترسل عند عبد الحميد الكاتب وابن العميد. وهدفت إلى عقد مقارنة موضوعية لفن الترسل وميزاته الفنية عندهما. ولم يوضح الدارس

المنهج الذي اتبعه في الدراسة. وخلصت الدراسة إلى عدد من النتائج أهمها: أن عبد الحميد الكاتب مال في ترسله إلى الإطناب والتوازن وتنويع المطلع والختام والتحميدات، وأما ابن العميد فقد اهتم بالسجع والمحسنات البديعية على اختلافها مع تفاوت في درجة الاهتمام، وأن الكاتبين أظهرا التزاماً إسلامياً وخلقياً وأدبياً في ترسلهما، وأن الصفات الفنية للترسل عند الكاتبين استمرت في الكتابة العربية حتى عهدنا الذي نعيشه. وأوصت الدراسة بإجراء دراسات فنية أخرى لفن الترسل عند أعلام الترسل الآخرين في تاريخ الأدب العربي. وتلتقى دراسة العلي مع الدراسة الحالية في تناولهما لرسائل ابن العميد وتختلف عن الدراسة الحالية في اقتصارها على فن الترسل عند ابن العميد. ولقد أفادت الدراسة الحالية من دراسة العلي في عرضها الجيد وتحليلها لفن الترسل في رسائل ابن العميد.

ج- دراسة محمود وولي (2015م):

تناولت هذه الدراسة شخصية ابن العميد وعصره.من خلال محورين الأول خصص لدراسة اسمه وكنيته وآراء المؤرخين فيه، وأساتذته، وصفاته وأخلاقه ومجالسه وندمائه، بينما خصص المحور الثاني لدراسة حياته السياسية والعسكرية وطرائفه وعلاقته بحسنويه الكردي، واختتمت الدراسة بالحديث عن مرضه ووفاته. ولم يوضح الباحث المنهج الذي اتبعه ولا أهمية دراسته. وتوصلت الدراسة إلى أن ابن العميد يعد من الوزراء الأكفاء الذين أسهموا في نهضة الدولة البويهية، وحفظها والدفاع عنها وتسيير شؤونها، وأنه كان عجباً في فن الترسل والإنشاء. وتلتقى دراسة محمود وولي مع الدراسة الحالية في تناولهما لشخصية ابن العميد، لكن تختلفان في أن دراسة محمود وولي كانت عامة وموجزة في كل الجوانب التي تناولتها. ولقد أفادت الدراسة الحالية من دراسة محمود وولي في عرضها لبعض النقاط المتشابهة.

الفصل الأول

ابن العميد حياته وعصره

المبحث الأول

حياته ونشأته

وابن العميد هو أبو الفضل محمد بن أبي عبد الله الحسين بن محمد الكاتب، المعروف بابن العميد، والعميد لقب والده، لقبه بذلك أهل خراسان[1].

ولد أبو الفضل ابن العميد في مطلع القرن الرابع الهجري نحو سنة 300هـ أو قبل ذلك بقليل، فلم تهتم الكتب التي ترجمت له بتاريخ ميلاده ولكنها أشارت إلى أن وفاته كانت في سنة 360هـ على الأرجح، وقد كان عمره نحو ستين سنة أو أكثر بقليل[2].

يرجع أصل أسرته إلى مدينة قم من بلاد فارس، وكان والده أبا عبد الله الحسين بن محمد وزيراً لمرداويج الزياري إلى أن قُتل الأخير سنة 323هـ، ثم كتب لما كان بن كاكي، وبعد مقتله سنة 329هـ[3]، تولى ديوان الرسائل للملك الساماني نوح بن نصر، فلقبه أهل خراسان بالشيخ[4]، وبالعميد على عادتهم في تعظيم من يتولى ديوان الرسائل[5]. ثم استوزره الملك نوح بن نصر الساماني فحسده أبو جعفر محمد بن العباس الوزير على هذه المكانة. وقد كان أبو القاسم علي بن محمد النيسابوري الإسكافي يكتب في ديوانه ويرى نفسه أحق بهذه الرتبة والمكانة منه، ويتمنى زوال أمره ليقوم مقامه، وله فيه أبيات مستظرفة منها قوله (من مجزوء الرجز):

وقائـــل ما الـــذي ... من كلّـــة تطلبـــه

قلـــت له أطلـــب أنْ ... يقلـــب منّـــه لقبـــه

(1) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، ج5، ص103. وابن العماد، الإمام شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، 1989م، ج4، ص312.

(2) راجع ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص109. وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص89، 108، 153. ومسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق: سيّد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ج5، ص374.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص89، 108، 153.

(4) الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج3، 184.

(5) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص103.

وقد ظل أبو عبد الله العميد في الوزراة والديوان برسمه إلى أن أتته المنية في أيام الملك نوح بن نصر الساماني، وخلفه على ديوان الرسائل أبو القاسم المذكور آنفاً[1].

وكان أبو عبد الله العميد كما يقول الثعالبي في الرتبة الكبرى من الكتابة ورسائله مدونة بخراسان[2]، ويصفه ابن خلكان بأنه ذو فضل وأدب وترسل[3]. ويرى أبو إسحاق الصابي أن رسائله لا تقصر في البلاغة عن رسائل ابنه أبي الفضل، لكن الثعالبي ينتقد رأي أبي إسحاق هذا ويعده حيفاً شديداً على ابن العميد وتحاملاً من الصابي؛ لأن القاص لا يحب القاص بحسب عبارة الثعالبي[4].

ويمكننا القول إن أبا الفضل ابن العميد نشأ في بيت أدب وكتابة وسياسة، فأفاد من منزلة أبيه، ومن رتبته في الأدب والسياسة، فقد كان والده من كبار كتاب الدولتين الزيارية والسامانية ومن الوزراء، وكان له فضل على البويهين في تأسيس دولتهم[5]، وقد بعث العميد ابنه أبا الفضل لخدمة البويهيين في مناطق الري وكور الجبل وفارس، وظل أبو الفضل عند البويهيين يتدرج إلى المعالي ويزداد على الأيام فضلاً وبراعة حتى بلغ ما بلغ. فأعجب به ركن الدولة فأكرمه حتى استقر في الذروة العليا من الوزارة[6].

والمشهور من هذه الأسرة ثلاثة هم الأب والابن والحفيد، أما الأب فاسمه الحسين وكنيته أبا عبد الله ويلقب بالشيخ وبالعميد كما مرّ قبل قليل[7]. وأما الابن وهو الذي نخصه بهذه الدراسة فاسمه محمد وكنيته أبا الفضل ويلقب بالأستاذ وبالرئيس[8]، وبالجاحظ الثاني[9]. وأما الحفيد فاسمه علي[10] وكنيته أبا الفتح ويلقب بذي الكفايتين[11].

(1) الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج3، 184.
(2) المرجع السابق، ج3، 184-185.
(3) وفيات الأعيان، ج5، ص103.
(4) الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج3، 184.
(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص89.
(6) الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج3، 185.
(7) الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج3، 184. وابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص103.
(8) مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج5، ص378.
(9) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص103.
(10) المرجع السابق، ج5، ص110.
(11) مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج5، ص-389 390.

شيوخه:

يُجمع مردم وضيف على أنه ليس هناك شيء ذا قيمة عن أساتذة ابن العميد الذين أخذ عنهم العلم والفلسفة والأدب والكتب التي قرأها حتى بلغ ذلك الفضل، ويذهب مردم إلى أنه لا يُعرف له أستاذ سوى محمد بن علي بن سعيد المعروف بسمكه مؤلف كتاب أخبار العباسيين [1] الذي ذكره صاحب الفهرست [2]، ويذهب ضيف إلى أنه لا يعرف عن أساتذته سوى اثنين، أولهما والده، وثانيهما هو سمكة أو ابن سمكة الذي ذكره صاحب الفهرست، فليس في المصادر "ما يدل دلالة واضحة على المنابع الثقافية التي نهل منها ابن العميد، غير أننا لا نتابعه في آثاره وفي وحياته أثناء وزارته حتى نجده يلم بجميع ضروب الثقافة لعصره، ولعله من أجل ذلك سمي باسم الجاحظ الثاني" [3].

فقد كان والده أبو عبد الله العميد من أساتذته –كما مرّ آنفاً– وكذلك يقول الزيات: إن والده "نشأه على الأدب ودربه في الكتابة، وغذاه بالعلم، فبرع في الإنشاء والترسل، وتوسع في الفلسفة والنجوم، حتى سمي الأستاذ ولقب بالجاحظ الثاني. ولما استكملت عُدته، واستحصدت قوته، غادر بخارى إلى بلاد الجبل من ملك آل بويه؛ فتقلد الأعمال في دولتهم" [4].

ومن أساتذته أبو يوسف الرازي الذي ذكره صاحب الفهرست كذلك، وقال إنه فسر المقالة العاشرة من كتاب اقليدس في أصول الهندسة لابن العميد [5].

ومن أساتذته أبي عبد الله البرقي، وقد رأيت ذلك في كتاب مشاهير شعراء الشيعة، يقول صاحب الكتاب إن ابن العميد "تتلمذ على أبي عبد الله البرقي وتخرج عليه، وأخذ الأدب عن أحمد بن إسماعيل القمِّي المعروف بسمكة" [6].

(1) ابن العميد، مكتبة عرفة، دمشق، 1931م، ص24.
(2) ابن النديم، محمد بن إسحق، الفهرست، تحقيق: رضا – تجدد، دون تاريخ، ص155.
(3) الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، ط9، ص206.
(4) تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر، القاهرة، ص234.
(5) ابن النديم، الفهرست، ص326.
(6) الشبستري، عبد الحسين، ج4، ص172.

تلاميذه:

منهم عضد الدولة وقد تعلم منه سياسية الملك ومحبة العلم والعلماء [1]. يذكر مسكويه أن عضد الدولة كان يعتد بتتلمذه على ابن العميد ويدين له بجميع ما يتم من تدابير الشؤون السياسية من حيازة الممالك وحفظ الأطراف وقمع الأعداء، يقول مسكويه: "علّم عضد الدولة وجوه التدابير السديدة وما تقوم به الممالك وصناعة الملك التي هي صناعة من الصناعات ولقنه ذلك تلقيناً فصادف منه متعلماً لقناً وتلميذاً فهماً حتى سُمع من عضد الدولة مراراً كثيرة أن أبا الفضل بن العميد كان أستاذنا وكان لا يذكره في حياته إلا بالأستاذ الرئيس وربما قال الأستاذ ولم يقل الرئيس ولا يحفظ عليه أن ذكره قط بعد موته إلا بالأستاذ، وكان يعتد له بجميع ما يتم من تدابيره وسياسته ويرى أن جميع ذلك ومأخوذ عن رأيه وعلمه"[2].

ومنهم أبو الحسن العامري الفيلسوف شارح كتب أرسطاطاليس وقد كان يعد نفسه في منزلة من يصلح أن يتعلم منه، ولكنه لما اطلع على سعة علم ابن العميد في المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات وتوقد خاطره وحسن حفظه للمسطور "برك بين يديه واستأنف القراءة عليه، فقرأ عليه عدة كتب مستغلة ففتحها عليه ودرسها إياها"[3].

ومنهم ابنه أبو الفتح علي بن محمد بن الحسين الملقب بذي الكفايتين، يقول الثعالبي: "وقد تأنق أبوه في تأديبه وتهذيبه، وجالس به أدباء عصره، وفضلاء وقته، حتى تخرج وخرج حسن الترسل، متقدم القدم في النظم، آخذاً من محاسن الآداب بأوفر الحظ"[4]. وفي ذلك يقول التوحيدي إن ابن العميد اتخذ مسكويه وابن فارس لتعليم ابنه: "وأما مسكويه فإنه اتخذه خازناً لكتبه، وأراد أيضاً أن يقدح ابنه به، وأما بن فارس فإنه استخدمه ليُعلّم ولده"[5].

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص320.
(2) تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج5، ص378.
(3) المرجع السابق، ج5، ص375.
(4) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج3، ص215.
(5) مثالب الوزيرين، تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، 1961م، ص228.

ومنهم الصاحب إسماعيل بن عباد الذي لقب بالصاحب لأنه كان تلميذ ابن العميد وخصيصه وصاحبه، وكان الصاحب معجباً بأستاذه، ويروى عنه أنه سافر إلى بغداد، ولما رجع إلى أستاذه ابن العميد سأله عنها، فقال الصاحب: "بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد" [1].

اختلف في لقب الصاحب، فقيل لُقِّبَ بالصاحب لأجل صحبته لابن العميد [2]، وقيل لَقَّبَهُ بذلك مؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه؛ لأنه أحسن في خدمته عندما كان أميراً، وأنس منه كفاية وشهامة فَلَقَّبَهُ بالصاحب كافي الكفاة، ولما آلت إليه ولاية بلاد الري وأصبهان استوزر الصاحب إلى حين وفاته [3].

كان الصاحب بن عباد في "بدء أمره من صغار الكتاب يخدم أبا الفضل ابن العميد"[4]، ثم اختاره ابن العميد ليكون مربياً لمؤيد الدولة بن ركن الدولة وولي عهده، وكانت إقامته في أصفهان، كما رشحه ابن العميد في رسالة بعث بها لقبول الكتابة لمؤيد الدولة. وكان ابن عباد يباهي بتلك الرسالة ويحتفظ بها، ويرويها ويفتخر بها. وفي هذه الرسالة يجعل ابن العميد من نفسه أباً للصاحب بعد أبيه، ويعترف له بالسيادة[5]. وجاءت هذه الرسالة كشهادة تقدير من معلم لتلميذه. ثم أصبح ابن عباد وزيراً لمؤيد الدولة سنة 373هـ، ثم وزيراً لأخيه فخر الدولة إلى أن توفي سنة 385هـ. وكان قد خلف ابن العميد في مركزه في الوزارة وفي اقامته في الرّي. وقد جعل الثلاثي عضد الدولة البويهي وابن العميد وابن عباد هذا القسم الجنوبي من فارس في منتهى الخصب العلمي والأدبي[6]. وقد سار على نهج أستاذه ابن العميد في أسلوبه، وأربى عليه في الحلية اللفظية لا سيما في السجع والجناس. كما سار

(1) ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج4، ص312. وابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص104.
(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص104.
(3) الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، تحقيق: د.إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993م، ج2، ص-663 664.
(4) المرجع السابق، ج2، ص663.
(5) المرجع السابق، ج2، ص-663 664.
(6) أمين، أحمد، ظهر الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ج1، ص201.

على نهجه في كرمه وإغداقه على الأدباء [1]. وللصاحب ابن عباد في ابن العميد مدائح كثيرة، فمن عيون شعره فيه قوله (من الخفيف) [2]:

من لقلب يهيم في كل واد ... وقتيل للحب من غير واد
إنما أذكر الغواني والمق ... صدُ سُعدى مُكثراً للسوادَ
وإذا ما صدقت فهي مرامي ... ومنائي وروضتي ومرادي
وندى ابن العميد إني عميدٌ ... من هواها اليَّة الأمجاد
لو درى الدهر أنه من بنيه ... لازدرى قَدْرَ سائر الأولادَ
أو رأى الناس كيف يهتز للجو ... د لما عدَّدوه في الأطوادَ
أيها الآملون حطّوا سريعاً ... برفيع العماد واري الزنادَ
فهو إنْ جاد ضُنَّ حاتم طيّ ... وهو إن قال قلَّ قسُّ إيادَ
وإذا ما ارتآى فأين زيادٌ ... من علاه وأين آل زيادَ
أقبل العيد يستعير حلاه ... من علاه العزيزة الأندادَ
سيضحّى فيه لمن لا يواليـ ... ـه ويبقى بقيَّه الأعيادَ
ومديحي إن طال أبيا ... تاً فقد طال في مجالي الجيادَ
إنَّ خيرَ المُدّاح مَنْ مدحَتْهُ ... شعراءُ البلاد في كل نادَ

وقد علّق الثعالبي على هذه الأبيات بقوله: "ما أحسن ما أدمج الافتخار في أثناء المدح!"[3]. ومن مختار شعر الصاحب فيه، قوله (من الكامل)[4]:

قدّم الرئيس مقدّماً في سبقه ... وكأنما الدنيا جرت في طرقه
فجبالها من حلمه، وبحارها ... من جوده، ورياضها من خلقه
وكأنما الأفلاك طوع يمينه ... كالعبد منقاداً لمالك رقّه
قد قاسمته نجومها: فنحوسها ... لعدوه، وسعودها في أفقه
ما زلت مشتاقاً لنور جبينه ... شوق الرياض إلى السحاب وودقه
حتى بدا من فوق أجرد سابح ... إن قال فتُّ الريح فاه بصدقه
يحكي السحاب طلوعه فصهيلهً ... من رعده ومسيره من برقه
فنظمت مدحاً لا وفاء بمثله ... وسجدت شكراً لا نهوض بحقه

وفيه أيضاً قوله (من المنسرح)[5]:

(1) أمين، أحمد، ظهر الإسلام، ج1، ص204. والزيات، تاريخ الأدب العربي، ص238.
(2) الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج3، ص186.
(3) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج3، ص186.
(4) المرجع السابق، ج3، ص187.
(5) المرجع السابق، ج3، ص187.

كم حاسد لي وكنت أحسده ... يقول من غيظه ومن ألمه
نال ابن عبّاد المنى كملاً ... إذ عدّه ابن العميد من خدمه

ومن جيد شعره الذي يذوب رقة وعذوبة، ويدل على صدق المشاعر وإخلاص الود لأستاذه قوله (من المتقارب)[1] :

أودّع حضرتك العالية ... ونفسي لا دمعتي هاميه
ومن ذا يودّع هذا الجناب ... فتهنؤه بعده العافيه
جناب رعيت به جنّةً ... قطوف مكارمها دانيه
رأيت به فائضات العلا ... وعلّمت ما للهمم العاليه
كأني ببغداد في شوقها ... إليك وأدمعها الجاريه
وأنت المرجّى لإظفارها ... بآمالهـــا وبأماليـــا
ولو كنت تأذن لي في المسير ... إذاً سرت في جملة الحاشيه
سبقت جوادك مذ الطريق ... وسرت وفي يدي الغاشيه

ويمكن القول مما تقدم إن الصاحب كان ينزل أستاذه ابن العميد منزلة كبيرة، ويمنحه قدراً كبيراً من الإجلال والإكرام، "ولعل الصاحب لم يمدح بشعره من الملوك والوزراء والأمراء مثل ما مدح به أستاذه أبا الفضل" [2]. وفي هذه المدائح ما يؤكد معرفته بفضل ابن العميد عليه، فهو الذي علمّه وأدبه ولقنه طريقته في الكتابة ودربه على أعمال الكتابة والوزارة؛ وقد أنشأ هذه المدائح للإعتراف بفضل أستاذه ابن العميد وما أسداه إليه من معروف [3].

علمه:

تفوق ابن العميد في علوم كثيرة منها الهندسة والمنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات والطبيعة والتصوير، بالإضافة لكونه أديباً واسع الرواية لأشعار العرب، ولم تشغله "شقشقة الفصاحة وخلابة الألفاظ عن النظر في العلوم والتعمق فيها لا سيما العقلية. ولعل إعجابه بالجاحظ وتعصبه له وقوله فيه" كتب الجاحظ تعلم العقل

(1) المرجع السابق، ج3، ص188.
(2) طبانة، د. بدوي، الصاحب بن عباد الوزير الأديب العالم، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1963م، ص44.
(3) طبانة، د. بدوي، الصاحب بن عباد الوزير الأديب العالم، ص50.

أولاً والأدب ثانياً" من جهة علم الجاحظ لا من جهة أسلوبه في الإنشاء، لأن ابن العميد قد خالف الجاحظ في أسلوبه وشرع لنفسه طريقة عرف بها" [1].

وقد قال مسكويه عن علمه: "كان هذا الرجل أكتب أهل عصره، وأجمعهم لآلات الكتابة حفظاً للغة والغريب، وتوسعاً في النحو والعروض، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام... فأما تأويل القرءان وحفظه مشكله ومتشابهه، والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار، فكان منه في أرفع درجة وأعلى رتبة، ثم إذا ترك هذه العلوم وأخذ في الهندسة والتعاليم لم يكن يدانيه فيها أحد، فأما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد في زمانه أن يدعيها بحضرته، فهذه كانت مرتبته في العلوم والآداب المعروفة"[2].

كما أنه "كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة التي لا يدعيها أحد كعلوم الحيل التي يحتاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة والطبيعة والحركات الغريبة وجر الثقيل ومعرفة مراكز الأثقال وإخراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة إلى الفعل وعمل آلات غريبة لفتح القلاع والحيل على الحصون... ثم معرفته بدقائق علم التصاوير. ولقد رأيته يتناول من مجلسه الذي يخلو فيه بثقاته وأهل أنسته التفاحة وما يجري مجراها، فيعبث بها ساعة ثم يدحرجها، وعليه صورة وجه قد خطها بظفره لو تعمد لها غيره بالآلات المعدة والأيام الكثيرة ما استوفى دقائقها ولا تأتى له مثلها"[3].

وكانت له عناية تامة بكتب اليونان وترجمتها يقول ابن النديم: "الذي رأيت أنا بالمشاهدة أن أبا الفضل ابن العميد أنفذ إلى ههنا (بغداد) في سنة نيف وأربعين (بعد الثلاثمائة) كتباً متقطعة أصيبت بأصفهان في سور المدينة في صناديق، وكانت باليونانية، فاستخرجها أهل هذا الشأن، مثل يوحنا وغيره، وكانت أسماء الجيش

(1) مردم، ابن العميد، ص35.
(2) تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج5، ص376.
(3) المرجع السابق، ج5، ص376.

ومبلغ أرزاقهم. وكانت الكتب في نهاية نتن الرائحة حتى كأن الدباغة فارقتهاعن قرب، فلما بقيت ببغداد حولاً جفت وتغيرت وزالت الرائحة عنها[1] .

وقد ذكر التوحيدي أنه لم يقرب إلى ابن العميد إلا من كان على درجة عالية من العلم والأدب والشهرة، فقرب إليه الهروي وربطه بركن الدولة، وجعل مسكويه خازناً لكتبه، وجعل ابن فارس معلماً ومؤدباً لابنه أبي الفتح، وأسند مهنة النسخ لأبي طاهر الوراق[2]. وكان من جلسائه من الفلاسفة أستاذه ابن سمكة وأبو محمد بن هندو، وكلاهما فيلسوف إلهي [3]، والفيلسوف النيسابوري المعروف أبو الحسن العامري الذي شرح له ابن العميد بعض المسائل المستغلقة من كتاب أرسطاطاليس [4]. ومنهم أبو يوسف الرازي الذي فسر المقالة العاشرة من كتاب إقليدس لابن العميد [5].

وكانت لابن العميد مكتبة عظمية جمع فيها نفائس الكتب من كل العلوم والآداب والحكم، وكان مسكويه خازناً لكتبه وأميناً عليها، فهو يحدثنا عن شغف ابن العميد بهذه المكتبه وشدة حرصه عليها وكثرة ما فيها من الكتب، وذلك في معرض حديثه عن أحداث سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، ومن هذه الأحداث غزوة الخراسانية للري مقر إمارة ركن الدولة، وقد نهب الخرسانية في هذه الأحداث دار ابن العميد واصطبلاته وخزائنه، وكان من حسن الحظ أن خزانة كتبه سلمت ولم يتعرضوا لها، يقول مسكويه عند إنصرافهم عاد ابن العميد لداره "واشتغل قلبه بدفاتره ولم يكن شيء أعز عليه منها، وكانت كثيرة فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والآداب يحمل على مائة وقر وزيادة، فلما رآني سألني عنها فقلت: هي بحالها لم تمسها يد. فسرّي عنه وقال أشهد أنك ميمون النقيبة أما سائر الخزائن فيوجد منها عوض وهذه الخزانة هي التي لا عوض منها. ورأيته وقد أسفر وجهه" [6].

(1) الفهرست، ص302.
(2) مثالب الوزيرين، ص228.
(3) علي، محمد كرد، أمراء البيان، ط1، دار الثقافة الدينية، القاهرة، 2012م، ج2، ص559.
(4) مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج5، ص375.
(5) ابن النديم، الفهرست، ص326.
(6) تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج5، ص347.

مؤلفات ابن العميد:

لم تحفظ من آثار ابن العميد إلا النذر اليسير، والذي بقي من آثاره قطع من النثر والشعر مبثوثة في كتب التراجم والأدب على سبيل الاستشهاد، وهي بالطبع لا تكفي لتخليد اسمه، ولا تتلائم مع شهرته الواسعة، فلا بد من أن يكون قد كتب كثيراً حتى ذاع اسمه، وطارت شهرته، فلما عبثت الأيام بآثاره، بقي اسمه خالداً بقوة الاستمرار، ويعزي مردم ضياع هذه الآثار إلى أن الاجتياح المغولي لبلاد فارس والعراق والذي ذهب بالجزء العظيم من تراثنا العلمي والأدبي، وذهب معه تراث ابن العميد [1]. ومن أهم كتبه: كتاب ديوان رسايل. وكتاب المذهب في البلاغات، ذكرهما ابن النديم [2]، وكتاب الخَلق والخُلُق ذكره العباسي[3]. وكتاب ديوان اللغة، وقد ذكر البغدادي أن ابن العميد قرأ كتابه هذا على المتنبي عند زيارت له في أرجان[4].

مرضه وفاته:

كان أبو الفضل ابن العميد يعتاده القولنج تارة والنقرس أخرى [5]، تسلمه هذه إلى هذه وكان يقول: إذا عارضني النقرس فكأني بين فكي سبع يمضغني، وإذا اعتراني القولنج وددت لو استبدلت النقرس عنه"[6].

وقد اختلف في تاريخ ومكان وفاته، يقول ابن خلكان: توفي ابن العميد في صفر، وقيل في المحرم بالري، وقيل ببغداد سنة ستين وثلثمائة، ونقل أيضاً في تاريخ وفاته نصاً آخر ورد في كتاب "الوزراء" لأبي الحسين هلال بن إبراهيم الصابي، وكتاب "التاجي" لجده إبراهيم الصابي أن ابن العميد توفي في سنة تسع وخمسين وثلثمائة [7].

(1) ابن العميد، ص30-44.
(2) الفهرست، ص149.
(3) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، 1947م، ج2، ص124.
(4) خزانة الأدب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م، ج2، ص359.
(5) القولنج (الإمساك المزمن)، والنقرس (داء المفاصل)، انظر: فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي الأعصر العباسية، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1981م، ص500.
(6) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص110.
(7) وفيات الأعيان، ج5، ص109.

ويذهب مسكويه إلى إن وفاته كانت "بهمذان في صفر ليلة الخميس السادس منه سنة ستين وثلاثمائة ففُقد به الفضل أجمع وعدمت المحاسن التي ما اجتمعت لغيره في الإسلام" (1).

أورد ابن الأثير خبر وفاته ضمن حوادث سنة 359ه، وقد كان ذلك في المحرم، وأنه توفي بهمذان بلد حسنويه، وقد ورد ذلك في خبر مسير ابن العميد إلى حسنويه عند عصيانه لركن الدولة، يقول ابن الأثير: "وفي هذه السنة جهّز ركن الدولة وزيره ابن العميد في جيش كثيف وسيره إلى بلد حسنويه. فتجهّز وسار في المحرم، ومعه ولده أبو الفتح. وكان شاباً مرحاً قد أبطره الشباب والأمر والنهي وكان يظهر منه ما يغضب بسببه والده، وازدادت علته، وكان به نقرس وغيره من الأمراض. فلما وصل همذان توفي بها، وقام ولده مقامه. فصالح حسنويه على مال أخذه منه، وعاد الري في خدمة ركن الدولة" (2).

(1) تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج5، ص374.
(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص319.

المبحث الثاني

الحياة السياسية في عصر ابن العميد

عاش ابن العميد في العصر العباسي الثالث، وهو العصر الذي عظم فيه نفوذ الأسرة البويهية التي أسست دولتها في فارس والأهواز وكرمان وأصفهان وهمذان، وبسطت هيمنتها على العراق وشاركت الخلافة العباسية في الحكم. وقد ظهرت هذه الأسرة على مسرح الأحداث في أوائل القرن الرابع الهجري، فهاجرت من الشمال، من بلاد الديلم المنطقة المجاورة لبحر قزوين، واشتهرت هذه الأسرة على يد الأخ الأكبر من الإخوة البويهيين الثلاثة، وهو عليّ بن شجاع بن بويه الذي ولاه مرداويج الزياري بلاد الكرج. ويبدو أن عليًّا كانت تراوده نزعات تتعدى الاستقلالية إلى التوسع على حساب جيرانه، بالإضافة إلى الطموح السياسي الذي تحقق له سريعاً، حيث ما لبث أن أصبح صاحب شوكة في هذه النواحي، واستمال الناس بحسن سياسته، وتمكن بفضل مقدرته العسكرية والإدارية وكرمه وحسن معاملته لأتباعه؛ من بناء جيش قوي، انتزع به معظم بلاد فارس في خلال فترة قصيرة. واتخذ مدينة شيراز قاعدة لحكمه [1].

استولى علي بن بويه على هذه البلاد باسم الخليفة العباسي ظاهراً، وكان يهدف في باطن الأمر إلى إقامة دولة خاصة به مستغلاً ضعف الخلافة السياسي والعسكري وعجزها عن التدخل في هذه المناطق لترتيب أوضاعها. ثم أرسل علي بن بويه إلى الخليفة الراضي يطلب منه الاعتراف بسلطانه وهذا طبيعي، فإنه كان عليه أن يأمن جانب الخلافة لأنه يسيطر على إحدى ولاياتها رغم إرادتها، وقد أراد أن يكسب حكمه صفة شرعية وقد تم له ما أراد [2]. ثم التفت إلى مرداويج، فعمل على كسب رضاه أيضاً فعرض عليه أن يدخل في طاعته، وأن يكون ما بيده من بلاد تابعة

(1) طقوش، د. محمد سهيل، تاريخ الدولة العباسية، ط7، دار النفائس، بيروت، 2009م، ص-220 221..
(2) المرجع السابق، ص221.

له يخطب له فيها. وفعلاً رحب مرداويج بهذا العرض فقلده أرجان، وأرسل علي بن بويه إليه أخاه حَسَن رهينة ليكفل له حُسَن التنفيذ[1] . أما فيما يتعلق بالعلاقة بينه وبين الخلافة العباسية، في هذه الفترة، فقد تحددت بمقتضى التقليد الذي أرسله الخليفة، لكن الخلافة حاولت أن تستعيد هيبتها، فأرسلت جيشاً بلغ مشارف فارس، لكنه رُدَّ على أعقابه بعد وقعة أرجان في (323هـ/935م) وثبّت علي بن بويه أقدامه في المنطقة، وأقام دولته فيها [2].

كانت الظروف السياسية تعمل لمصلحة البويهيين ففي عام (323هـ/935م) قُتِل مرداويج، فاستفادوا من هذه الفرصة وسيطروا على بلاد الجبل التي كانت تحت سيادة وشمكير الزياري شقيق مرداويج، كما سيطروا على أصفهان والري وهمذان والكَرَج وبقية بلاد العراق العجمي، ولتأمين هذه الأقاليم التي استولوا عليها قبل دخلوهم للعراق الذي كان محط أنظارهم، سيطروا أيضاً على كرمان والأهواز؛ لأن هذين الإقليمين يشكلان ممراً طبيعياً لأي غزو محتمل لإقليم فارس من ناحية الشرق أو ناحية الشمال [3].

ولم تقف الخلافة العباسية مكتوفة اليدين إزاء هذه التطورات السياسية والعسكرية؛ لذلك انتهزت فرصة الصراع البويهي- الزياري، وحاولت استعادة الأهواز، ولكنها لم تستطع ذلك، وأضحى نزول البويهيين من الأهواز إلى العراق أمراً ميسوراً، فراحوا يراقبون الأحداث في عاصمة الخلافة حتى تسنح لهم الفرصة لدخولها. وكانت الحالة في العراق مضطربة، كما كانت الخلافة واقعة تحت نفوذ الأتراك، وظهر عجزها في إقرار الأمور في العراق، فشعر الناس بهذا الفراغ السياسي. ونتيجة لذلك تطلّع الناس إلى هذه القوة الجديدة التي ظهرت بالقرب منهم لتنشلهم من الفوضى، كما تطلع بعض القادة المغلوب على أمرهم إلى قوة البويهيين

(1) المرجع السابق، ص221.
(2) المرجع السابق، ص221.
(3) المرجع السابق، ص-221 222.

النامية، آملين أن يحصلوا بواسطتها على الامتيازات التي حرموا منها أو أبعدوا عنها. وأخيراً مال الخليفة المستكفي لطلب المساعدة من البويهيين، فدعا الخليفة، أحمد بن بويه، وطلب منه دخول بغداد، كما كاتبه بعض القادة للغاية نفسها، فسار إليها في عام (332هـ/ 944م)، ودخلها في عام (334هـ/945م) بعدما خرج الأتراك منها، واستقبله الخليفة المستكفي بالله واحتفى به، وخلع عليه، وعينه أميراً للأمراء، ولقبه معز الدولة، ولقب أخاه عليّاً عماد الدولة، كما لقب أخاه حسن ركن الدولة [1].

وهكذا أسس البويهيون في فارس والعراق والأهواز وكرمان والرَّي وهمذان وأصفهان إمارات وراثية دامت حتى عام (447هـ/ 1055م)، وقد أدى نظام الوراثة هذا إلى نوع من الاستقرار السياسي في دولة الخلافة العباسية، سيطر البويهيون أثناءها على مقاليد الأمور، وتصرفوا بشكل مطلق. وعظم نفوذ هذه الأسرة حتى سمي باسمها عصر من عصور الخلافة العباسية، هو العصر العباسي الثالث. ولكن هذا الاستقرار تشوبه بعض الاضطرابات الناتجة عن النزاعات المذهبية بفعل تشيع الأسرة البويهية [2].

وتمتد الحقبة البويهية من (-334 447هـ/ -946 1055م) أي مدة ثلاث عشرة ومائة سنة، وتعاقب في هذه المدة أربعة خلفاء من بني العباس هم: المطيع لله، والطائع لله، والقادر بالله، والقائم بأمر الله. وكانت شجرة الحكام البويهيين على النحو التالي [3]:

أ-في فارس:

كان أولهم هو عماد الدولة أبو الحسن علي بن بويه (-320 338هـ/ -932 949م). ثم عضد الدولة أبو شجاع خسرو بن ركن الدولة (-338 372هـ/ -949 982م). ثم شرف الدولة أبو الفوارس شيرذيل بن عضد الدولة(-372 379هـ/

(1) المرجع السابق، ص-222 223.
(2) المرجع السابق، ص223.
(3) إقبال، عباس، إيران بعد الإسلام، ترجمة وتحقيق: د. محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة، القاهرة، 1989م، ص-93 94.

-982 989م). وآخرهم هو الملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز بن أبي كاليجار مرزبان (-440 447هـ/ -1048 1055م).

ب- وفي العراق وخوزستان وكرمان:

كان أولهم هو معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه(-320 356هـ/ -932 967م). ثم عز الدولة بختيار بن معز الدولة (-356 367هـ/ -967 977م). ثم عضد الدولة أبو شجاع خسرو بن ركن الدولة (-367 372هـ/ -977 982م). وآخرهم هو أبو منصور فولادستون بن أبي كاليجار (-440 448هـ).

ج- وفي الرَّي وأصفهان وهمذان:

كان أولهم هو ركن الدولة أبو علي حسن بن بويه (-320 366هـ/ -932 976م). ثم مؤيد الدولة أبو منصور بويه بن ركن الدولة (-366 373هـ/ -976 983م). ثم فخر الدولة أبو الحسن علي (-373 387هـ/ -983 997م). وآخرهم هو سماء الدولة أبو الحسن بن شمس الدولة (-412 414هـ/ -1021 1023م).

المبحث الثالث

الحياة الأدبية والعلمية في عصر ابن العميد

شهد القرن الرابع الهجري حركة علمية وأدبية واسعة، ازدهرت في حواضر الدولة العباسية المتجزئة؛ فقد كان الملوك والوزراء في الشام والعراق وفارس ومصر والمغرب والأندلس يتنافسون في استقطاب العلماء والأدباء والفقهاء والفلاسفة وغيرهم، وقد كان التنافس عاملاً مهماً من عوامل نماء الحركة العلمية والفكرية عامة والأدب خاصة [1]. يرى ضيف أن السبب في بلوغ النهضة العلمية أوجها يرجع إلى التنافس بين أصحاب الإمارات، فمضى "كل منهم يجهد جهداً بالغاً في أن يضم حوله علماء العصر ليزدان بهم بلاطه وتزدان بهم دولته وكي يبعثوا في شباب الدولة الطموح إلى تحقيق ما لم يحققه العلماء قبلهم"[2].

فقد كان بنو بويه من أكثر ملوك ووزراء هذه الحواضر تشجيعاً للحركة العلمية وأشدهم سخاء وكرماً على نشر العلم ورعاية العلماء [3]. فقربوا إليهم "العلماء والأدباء وحثوهم على التصنيف والتأليف وفتحوا أبوابهم للشعراء وغمروهم بالصلات"[4]. ويرجع ذلك إلى أن الكثير من ملوك بني بويه وأمرائهم وأغلب وزرائهم وكتابهم كانوا أدباء مثقفين ثقافة عالية. ولهذا احتشد العلماء والأدباء والشعراء في قصور الدولة البويهية في حواضرها المختلفة. يقول الزهيري: "امتاز عهد آل بويه بالخصب العلمي والأدبي بتأثيرهم الخاص أو بتأثير وزرائهم، ذلك أنهم استوزروا أبرع الكتاب وأبرزهم، واعتمدوا عليهم في تدبير شؤون الحرب وأمور السياسة والإدارة والمال جميعاً، فلمعت أسماؤهم، وعظمت هيبتهم، وطار صيتهم في الآفاق، فقصدهم أهل العلم والأدب، فأفادوا منهم كثيراً، وأنتجوا كثيراً

(1) الزهيري، محمود غناوي، الأدب في ظل بني بويه، مطبعة الأمانة، مصر، 1949م، 121-127.
(2) تاريخ الأدب العرب (عصر الدول والإمارات، الجزيرة العربية العراق إيران)، ج5، ص521.
(3) براون، إدوارد، الأدب العربي في إيران، تحقيق: د. أحمد كمال الدين حلمي، كلية الآداب، جامعة الكويت، 1998م، ج1، ص231. والزهيري، الأدب في ظل بني بويه، ص136.
(4) الأدب في ظل بني بويه، ص127.

في ميدان الأدب والعلم والفلسفة، فكان أثرهم في الحياة الفكرية قوياً جداً" [1].

وخير من يمثل ذلك بين البويهيين عضد الدولة أبو شجاع فنا خسرو يقول عنه ابن الأثير: " كان يجلس مع العلماء يعارضهم المسائل، فقصده العلماء من كل بلد ووضعوا له الكتب منها الإيضاح في النحو، والحجة في القراءات، والملكي في الطب، والتاجي في التاريخ إلى غير ذلك" [2]. ويقول عنه ضيف: "فقد كان يقدر العلم والعلماء ويُجري الرواتب والأرزاق على الفقهاء والأدباء والقراء، فرغب الناس في العلم" [3]. وإلى جانب هذا كان شاعراً مبرزاً، ذواقة للشعر، "يتفرغ للأدب، ويتشاغل بالكتب، ويؤثر مجالسة الأدباء، على منادمة الأمراء، ويقول شعراً كثيراً" [4]. وهو الذي قصده المتنبي بشيراز، يقول عنه الثعالبي: "من أراد أن ينظر في أخبار عضد الدولة ويقف على محاسن آثاره فليتأمل الكتاب التاجي، بتأليف أبي إسحاق الصابي، لتجتمع له مع الإحاطة بها بلاغة من قد تسهل له حزونها، ولا ينته متونها، وأطاعته عيونها" [5].

ويمكن أن نتلمس أيضاً تقدير عضد الدولة للشعراء والأدباء في الحفاوة التي قابل بها الصاحب بن عباد عندما جاءه زائراً في نهاوند سنة 370هـ، إذ تلقاه عضد الدولة بنفسه "على بعد من البلد وبالغ في إكرامه ورسم لأكابر كتابه وأصحابه تعظيمه ففعلوا ذلك" [6].

وكان عز الدولة أبو منصور بختيار بن معز الدولة شاعراً، وله أشعار حسنة كثيرة [7]. وكان تاج الدولة أبو الحسين أحمد بن عضد الدولة كذلك شاعراً متميزاً وصفه الثعالبي بأنه: "أدب آل بويه، وأشعرهم وأكرمهم، وكان يلي الأهواز، فأدركته حرفة الأدب" [8].

(1) المرجع السابق، ص127.
(2) الكامل في التاريخ، ج7، ص406.
(3) تاريخ الأدب العرب (عصر الدول والإمارات، الجزيرة العربية العراق إيران)، ج5، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1980م ص521.
(4) الثعالبي، يتمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج2، ص257.
(5) المرجع السابق، ج2، ص258.
(6) أبو شجاع، محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله، ذيل تجارب الأمم، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ص12.
(7) الثعلبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج2، ص260.
(8) المرجع السابق، ج2، ص261.

ولم يكن الأمراء البويهيون وحدهم أدباء وشعراء بل انسحب ذلك على بعض وزرائهم، ويأتي في مقدمة هؤلاء الصاحب بن عباد، الذي قال عنه الثعالبي: "كانت أيامه للعلوية، والعلماء، والأدباء، والشعراء، وحضرته محط رحالهم، وموسم فضلائهم، ومترع آمالهم، وأمواله مصروفة إليهم، وصنائعه مقصورة عليهم، وهمته في مجد يشيده، وإنعام يحدده، وفاضل يصطنعه، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه"[1]. فاجتمع له من الأدباء ما قلّ أن يجتمع لغيره [2]. قال الثعالبي: "احتف به من نجوم الأرض، وأفراد العصر، وأبناء الفضل، وفرسان الشعر، من يربى عددهم على شعراء الرشيد. ولا يقصرون عنه في الأخذ برقاب القوافي وملك رق المعاني" [3].

ومن الوزراء البويهيين الذين شجعوا الحركة الأدبية والعلمية الوزير المهلبي أبو محمد الحسن بن محمد وزير معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه. الذي يحدثنا عنه ابن خلكان بقوله: "وكان من ارتفاع القدر واتساع الصدر، وعلو الهمة، وفيض الكف، على ما هو مشهور به، وكان غاية في الأدب والمحبة لأهله [4]. يقول الثعالبي: "وكان يترسل ترسلاً مليحاً، ويقول الشعر قولاً لطيفاً، يضرب بحسنه المثل" [5].

(1) المرجع السابق، ج3، ص225.
(2) أمين، أحمد، ظهر الإسلام، ج1، ص203.
(3) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج3، ص225.
(4) وفيات الأعيان، ج2، ص124.
(5) يتمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج2، ص264.

الفصل الثاني

ابن العميد بين السياسة والأدب

المبحث الأول

ابن العميد الوزير والسياسي

عمل ابن العميد وزيراً لركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه، وذلك بعد وفاة وزيره أبي عبد الله القمي الذي وافته المنية سنة 328هـ يقول ابن الأثير: وفي هذه السنة "مات أبو عبد الله القمي وزير ركن الدولة بن بويه فاستوزر بعده أبا الفضل بن العميد فتمكَّن منه فنال ما لم ينله أحد من وزراء بني بويه" [1]. وظل في وزارة ركن الدولة إلى حين وفاته [2]. وقد كانت مدة وزارته ثلاثاً وثلاثين سنة [3]، وهي أطول مدة مكث فيها وزير طيلة القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي [4].

وقد كان ابن العميد حسن التصرف في الوزارة والشؤون السياسية، فقد عهد إليه "بالوزارة ودولة بني بويه في دور نشوئها، تحتاج إلى حزم وعزيمة في الفتوح، وقوة وبطش في قمع الفتن والنوائب، ورفق وكياسة في الترغيب، وشدة وعنف في الترهيب، مع نفوذ بصر في تصريف الأمور، وحدة ذكاء في اهتبال الفرص، إلى اضطلاع ودهاء في السياسة، وطول باع في تدبير هذه الشئون كلها وتصريفها، فقام ابن العميد بما عهد إليه أحسن قيام، بل كانت سيرته في الوزارة مثالاً يحتذيه الوزراء من بعده"[5].

لمعت شخصية ابن العميد بعد توليه الوزارة في مملكة ركن الدولة التي كانت من أكثر ممالك بني بويه تعرضاً للهزات والدسائس والفتن وخروج الخارجين من

(1) الكامل في التاريخ، ج7، ص150.
(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص319.
(3) ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات، الجزيرة العربية العراق إيران)، ج5، 656.
(4) محمود، د. أحمد عبد العزيز، وولي، د. هلز عنتر، ابن العميد الوزير البويهي: شخصيته وعصره، مجلة جامعة صلاح الدين، مجلد19، العدد4، ص28.
(5) مردم، خليل، ابن العميد، ص23.

القواد، وعصيان المتمردين من حكام النواحي؛ وذلك بسبب طبيعة سكان تلك المناطق الجبلية التي يطغى عليها حب العصيان والتحرر من كل سلطة، وبسبب مجاورتها لدولة السامانيين القوية والمعادية ومجاورتها لدولة الزياريين وقبائل الأتراك والأكراد المنتفضة. شب ابن العميد في هذا الجو السياسي العاصف، فمكنه ذلك من التدرب على أساليب الحكم وفن السياسة، فبرزت خصاله السياسية والعسكرية [1]، ومن ذلك:

أولاً: فرض سيطرته على الديلم والأتراك:

لقد تمكن ابن العميد من فرض سيطرته على الديلم، فسلموا له بالرئاسة عليهم، على الرغم مما عرفوا به من الميل إلى التمرد والشغب؛ وذلك بفضل ما أثبته من الدراية والحنكة وقوة الشخصية [2]. فقد كان الجند منهم قبل توليه الوزارة، متحكمين، والدنيا في أيديهم يملكونها كيف شاؤوا، وكان أميرهم يسمى بالإمرة مادام يستجيب إلى اقتراحاتهم، ومتى خالفهم استبدلوا به. وكانوا يتزاحمون على الدواوين يطالبون بالمحلات، فيمنعون المشتغلين بها من التفرغ لتدبير شئون البلاد حتى كانوا يهربون منهم [3]، فوضع ابن العميد حداً لكل ذلك، وأشاع هيبة الدولة في نفوسهم، وخلق تقاليد جديدة يراعيها الجميع [4]، يقول مسكويه في ذلك: "لما تولى الأستاذ الرئيس ابن العميد -رحمه الله- وزارة الأمير ركن الدولة استقام الأمر حتى رأيناه يركب إلى ديوانه من دار السلطان ولا يلقاه غير خاص كتابه، ثم يلقى صاحبه فلا يدور بينهما إلا عوارض المهم الذي لا يخلو من مثله ملك ووزير، وضبط أعماله، ونظم أموره، ورتب أسباب خدمته، حتى كان أكثر نهاره مشغولاً بالعلم وأهله، وبسط عدله، وأقام هيبته في صدور الجند والرعية حتى كان يكفيه

(1) محمود وولي، ابن العميد الوزير البويهي: شخصيته وعصره، ص31.
(2) المرجع السابق ص31.
(3) مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج5 ص377.
(4) محمود وولي، ابن العميد الوزير البويهي: شخصيته وعصره، ص30.

رفع الطرف إلى أحدهم على طريق الإنكار، فترتعد الفرائص، وتضطرب الأعضاء، وتسترخي المفاصل، وقد شاهدت من ذلك مواقف كثيرة" [1].

ثانياً: أعمال عسكرية:

لقد كان ابن العميد قائداً سياسياً مشهوداً له بالشجاعة التامة والبراعة والتفوق مع إحسان التدبير وإجادة لسياسة الملك والكتابة، ومعرفة بأمور الحرب والمحاصرات [2]، فقد كان يقوم بأعباء عسكرية بالإضافة لأعباء الوزارة السياسية والاقتصادية والإدارية، فكان يقود الجند بنفسه أثناء الحروب، والذي فرض عليه القيادة تلك الآونة ظروف قيام الدولة البويهية باعتبارها دولة عسكرية في الأساس، كما فرضته عليه وبصفة خاصة ظروف قيام مملكة ركن الدولة في محيط سياسي وعسكري معادٍ ومضطرب، بحيث وجد الوزير ابن العميد نفسه مضطراً إلى تحمل هذه الأعباء العسكرية إلى جانب أميره أو نيابة عنه؛ لأن الأعمال العسكرية كانت جزءاً من الحياة السياسية العادية لهذه الدولة [3].

وهذه شهادة مسكويه الذي كان يرافقه في كثير من حروبه: " فإذا حضر المعارك وباشر الحروب فإنما هو أسد في الشجاعة، لا يصطلي بناره ولا يدخل في غباره ولا يناويه قرن ولا يبارزه بطل، مع ثبات جأش، وحضور رأي، وعلم بمواضع الفرص، وبصر بسياسة العساكر والجيوش، ومعرفة بمكايد الحروب [4].

والواقع يؤكد شهادة مسكويه، ومن ذلك انتصار ابن العميد على محمد بن ماكان قائد الجيش الخراساني سنة 344هـ بعد أخذه لأصبهان واستيلائه على خزائنها وقرب أسره لأبي منصور بويه بن ركن الدولة ومن معه من الحرم، فقد اعترضه أبو الفضل بن العميد بخان النجان وهزمه هزيمة نكراء، بل وأسره وأسر

(1) تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج5 ص377.
(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص320.
(3) محمود وولي، ابن العميد الوزير البويهي: شخصيته وعصره، ص31.
(4) تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج5، ص376.

جميع قواده، "ورد الأمير أبا منصور بن ركن الدولة مع الحرم إلى أصبهان مصونين وتلافى ذلك الخطب العظيم أحسن تلاف"[1]. وعن ما أبداه من شجاعة وجرأة وحسن تدبير يقول مسكويه إن ابن العميد كان يحدثه مراراً بخبر هذه الواقعة فيقول: "لما التقينا بالخان انهزم عني أصحابي، واشتغل أصحاب ابن ماكان بالنهب والغارة، وثبت آنفة فقط من غير رجاء مني في ظفر، بل وقفت وقوف المستسلم للقتل والأسر، وذلك أني فكرت في تلك الحالة، وقلت: "إن انصرفت بنفسي سالماً، ومثلت بين يدي صاحبي، أي وجه يكون لي عنده؟ وأي لسان يدور بعذر لي بحضرته بعد أن أسلمت أعزته وأولاده وحُرمه بالجملة ملكه؟" ونظرت فإذا القتل عليّ في حالتي تلك أهون من هذه الحال التي تصورتها، فصرت لأن أقتل كريماً، قال: فكنت واقفاً وراء خيمة لي بعمودين وأنا أرى أطنابها تقطع، وما فيها يخرج، ومن يراني لا يظن أني أثبت في ذلك الموضع مع تلك الصورة، فبينما أنا كذلك وأصحاب ابن ماكان مشغولون عني بالنهب إذ ثاب إليّ غلامي روين وفلان وفلان وراءهم العرب، فثاب منهم جماعة يسيرة، فحملت بهم، وصاح الناس الكرة، فقتلنا وأسرنا، ولم يفلت أحد، ولما كان بعد ساعة من النهار لم يبق من جيش ابن ماكان عين تطرف إلا من أخذ أسيراً"[2].

وفي سنة 345هـ، كان عصيان روزبهان على معز الدولة، وقد وقع بينهما قتال انتهى بهزيمة رزوبهان وأصحابه، وأخذ روزبهان أسيراً إلى بغداد وقتله مخافة أن يخرجه الديلم بالقوة ويبايعوه، "وأما أخو روزبهان الذي خرج بشيراز فإن الأستاذ أبا الفضل بن العميد سار إليه في الجيوش فقاتله، وظفر به وأعاد عضد الدولة بن ركن الدولة إلى ملكه"[3].

وفي سنة 355هـ/966م خرج ابن العميد مدداً وعوناً لإبراهيم السلار خال العباس بن ركن الدولة بعد أن خُلع وطُرد من مملكته، وقد تمكن ابن العميد من

(1) المرجع السابق، ج5، ص315.
(2) تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج5، ص315. وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص253.
(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص257.

ارجاعه إلى مملكته في أذربيجان ودفع الأكراد عن بلاده[1]. يقول ابن الأثير: "وفي هذه السنة عاد إبراهيم بن المرزبان إلى أذربيجان، واستولى عليها، وكان سبب ذلك أنه لما قصد ركن الدولة، جهّز العساكر معه وسيَّر معه الأستاذ أبا الفضل ابن العميد، ليرده إلى ولايته ويصلح له أصحاب الأطراف، فسار معه إليها واستولى عليها، وأصلح له جستان بن شرمزن وقاده إلى طاعته وغيره من طوائف الأكراد ومكّنه من البلاد"[2].

وخرج في سنة 359هـ/969م لقتال حسنويه بن الحسن الكردي الذي ثار على ركن الدولة في نواحي الدينور، وكان أمره قد استفحل أيام ركن الدولة لانشغاله عنه، فأمر ركن الدولة ابن العميد بالمسير إليه، فتجهز وسار في المحرم، وكان معه ولده أبو الفتح، وكان شاباً مرحاً قد أبطره الشباب والأمر والنهي، وكان يظهر منه ما يغضب بسببه والده، وفي هذه الأثناء إزدادت علة ابن العميد، حيث كان به النقرس وغيره من الأمراض، فلما وصل إلى همذان أدركته المنية دون أن يحقق غايته، فقام ابنه مقامه، وصالح حسنويه على مال أخذه منه، ثم عاد إلى الرّي لخدمة ركن الدولة، وكان ابن العميد يقول: ما قتلني إلا ولدي، وما أخاف على بيت العميد أن يخرب ويهلكوا إلا منه" [3].

ثالثاً: توظيف قدراته الأدبية والبلاغية في الشؤون السياسية:

كان ابن العميد يوظف قدراته الأدبية والبلاغية وقوته في الاقناع وما له من صيت وهيبة لدى الناس لترسيخ مكانته السياسية، فمكنه ذلك من تجاوز الكثير من المشكلات وإقناع بعض القواد المناوئين للدولة بالعدول عما شرعوا فيه من عصيان، وكثيراً ما حقق بالطرق السياسية نصراً لا يقل أهمية من نصر عسكري، وخير مثال لذلك رسالته لابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة، فتمكن من إقناعه ورده عما

(1) مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج5، ص350.
(2) الكامل في التاريخ، ج7، ص295.
(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص319.

همّ به من عصيان دون إراقة قطرة من الدم[1]، وقد قال ابن بلكا بعد تلقيه الرسالة: "والله ما كانت لي حال عند قراءة هذا الفصل إلا كما أشار إليه الأستاذ الرئيس، ولقد ناب كتابه عن الكتائب في عرك أديمي واستصلاحي، وردي إلى طاعة صاحبه"[2].

(1) محمود، وولي، ابن العميد الوزير البويهي: شخصيته وعصره، ص31.
(2) الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج3، ص195.

المبحث الثاني

ابن العميد ناثراً وشاعراً

أولاً: نثر ابن العميد:

تعد الكتابة أبرز الجوانب التي أحاط بها ابن العميد، فقد عده الثعالبي أوحد زمانه في الكتابة [1]، ويرى ابن الأثير أنه أتي في الكتابة بكل بديع[2]، يقول الثعالبي: "لم يرث ابن العميد الكتابة عن كلالة، بل كان كما قال ذو الرمة: " ألفى أباه بذاك الكسب يكتسب"، لأن أباه أبا عبد الله الملقب "بكله" كان في الرتبة الكبرى من الكتابة، ورسائله مدونة بخراسان" [3].

يرى مبارك أن الكتابة عند ابن العميد ليست "زخرفاً براقاً يلهو به، ولا ثروة لغوية يكاثر بها الكتاب، ولكن الكتابة عنده ثورة عقلية أو وجدانية، يرمي بها كما يرمي البركان بأقباس الهلاك، وقد يرق فتحسب نثره نجوى حبيبين في هدأة الليل، وهو في رقته وجزالته وغضبه وحنانه عبقري لا يعبث برجع الحديث المعاد، وإنما يجد بإبداع الرأي الصائب والقول الرصين"[4].

رسائل ابن العميد:

برز على ساحة الكتابة الفنية على مر العهود الإسلامية عدد من أنواع الرسائل، منها:

أ.الرسائل الديوانية أو الرسمية:

من المرجح أن معاوية بن أبي سفيان هو أول من أنشأ ديوان الرسائل. ولقد نشأ هذا الديوان نشأة عربية خاصة، ولكنه في أثناء سيره مدته روافد فارسية ويونانية، حاولت أن تؤثر في أسلوب وطريقة عرض الرسالة[5]. وهذه الرسائل

(1) المرجع السابق، ج3، ص183.
(2) الكامل في التاريخ، ج7، ص320.
(3) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج3، ص184.
(4) النثر الفني في القرن الرابع الهجري، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، دون تاريخ، ج2، ص202.
(5) نصار، حسين، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1954م، ص-73 75.

يتبادلها الخلفاء والولاة وقواد الجيش، وتعني بأمور الدولة وشؤونها السياسية. وقد اشتهر في هذا المجال عبد الحميد الكاتب والصاحب ابن عباد وابن العميد. ومن رسائل ابن العميد في هذا المجال رسالته إلى الصاحب بن عباد يستكتبه لقبول الكتابة لمؤيد الدولة [1]. ورسالته إلى ابن بلكا، وهي رسالة صلح يعيد فيها ابن بلكا إلى طاعة ركن الدولة [2]. يصف زكي مبارك رسائل ابن العميد الرسمية التي يكتبها بوصفه وزيراً لركن الدولة بالقوة والحرية في التعبير عن إرادته الذاتية أكثر مما يعبر عمن يكتب باسمه، ويُرجع السبب في ذلك إلى "أن العميد كان كل شيء في الملك الذي يسيطر عليه باسم ركن الدولة، وكان إلى جانب هذا مخلصاً إخلاصاً قوياً يحوّل مشاكل الحكم عند أمثاله من الوزراء إلى معضلات شخصية تثور لها نفس الوزير قبل أن يحس بها صاحب التاج" [3]. ومن هنا كانت رسائله في هذا الجانب أقوى من رسائل الصابي وغيره من كتاب الدواوين على لسان بعض الخلفاء والوزراء [4].

نختار في هذه المساحة من رسائله الرسمية، فصلاً من أول رسالته التي أعاد فيها ابن بلكا إلى طاعة مخدومه ركن الدولة: "كتابي وأنا مترجّح بين طمع فيك، ويأس منك، وإقبال عليك، وإعراض عنك، فإنك تدل بسابق حرمة، وتمتّ بسالف خدمة، أيسرهما يوجب رعاية، ويقتضي محافظة وعناية، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية. وأدنى ذلك يحبط أعمالك، ويمحق كل ما يرعى لك، لا جرم أني وقفت بين ميل إليك، وميل عليك: أقدم رجلاً لصدمك. وأؤخر أخرى عن قصدك، وأبسط يداً لاصطدامك واجتياحك، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك، وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك، ضناً بالنعمة عندك، ومنافسة

(1) الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، ج2، ص683.
(2) الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج3، ص193.
(3) النثر الفني في القرن الرابع الهجري، اج2، ص203.
(4) مبارك، زكي، النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ج2، ص203.

في الصنيعة لديك، وتأميلاً لفيئتك وانصرافك، ورجاء لمراجعتك وانعطافك، فقد يغرب العقل ثم يؤوب، ويعزب اللب ثم يثوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويضاع الرأي ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو، وكل ضيقة إلى رخاء، وكل غمرة فإلى انجلاء، وكما أنت أتيت من إساءتك بما لم تحتسبه أولياؤك، فلا بدع أن تأتي من إحسانك. بما لا ترتقبه أعداؤك، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت، واخترت ما اخترت. فلا عجب أن تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت، وسوء ما آثرت. وسأقيم على رسمي في الإبقاء والمماطلة ما صلح، وعلى الاستيناء والمطاولة ما أمكن، طمعاً في انابتك، وتحكيماً لحسن الظن بك، فلست أعدم فيما أظاهره من أعذار، وأرادفه من إنذار، احتجاجاً عليك واستدراجاً لك، فإن يشأ الله يرشدك، ويأخذ بك إلى حظك ويسددك، فإنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير"[1] .

تتلخص أهم ما اشتملت عليه هذه الرسالة في الآتي[2] :

1. لم يتقيد بعبارة خاصة في مطلع الرسالة، مثل عبارات الحمد والثناء على الله عزَّ وجلَّ، والصلاة والسلام على نبيه صلى الله عليه وسلم.
2. السمة الغالبة على أسلوبه في هذه الرسالة، السجع والموازنة بين فقراته قصراً وطولاً، وفي بعض الأحيان لا يلتزم بالسجع نحو: "ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية" ، و" يعزب اللب ثم يثوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويضاع الرأي ثم يستدرك" .
3. العناية بألوان البديعية مثل الطباق، نحو: "إقبال وإعراض" ، "سابق وسالف" ، "أقدم وأؤخر" ، "يغرب ويؤوب" ، "يعزب ويثوب" ، "يذهب ويعود" ، "يفسد

(1) الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج3، ص193.

(2) مبارك، زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ج2، ص-207 209. وضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص210. والمقدسي، أنيس، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، 1960م، ص260. والمرايطة، رامي عثمان، رسائل ابن العميد دراسة فنية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2008م، ص-64 67.

ويصلح"، "يضاع ويستدرك"، يسكر ويصحو"، "يكدر ويصفو"، "إساءتك وإحسانك"، "أولياؤك وأعداؤك". ومن أمثلة الجناس: "الحزم والعزم"، و"يثوب ويؤوب"، و"سابق وسالف"، و"إليك وعليك"، و"ومنك وعنك". ومن أمثلة المقابلة: "اصطدامك واجتياحك، استبقائك واستصلاحك"، و" فيئتك وانصرافك، مراجعتك وانعطافك"، و"الإبقاء والمماطلة، الاستيناء والمطاولة".

4. لم يتقيد بالعبارات الخاصة بخواتيم الرسائل في العصور السابقة، مثل عبارات السلام والدعاء، بل كانت الرسالة مزيجاً بين فقرات الترغيب والتهديد.

وقد كان من أثر هذه الرسالة وقوتها وشدة وقعها، أنها أعادت ابن بلكا إلى الطاعة والإذعان بعد أن شرع في الخروج والعصيان، فكانت نائبة عن الكتائب في عرك أديمه واستصلاحه، ورده إلى طاعة ركن الدولة [1]. يقول زكي مبارك: "وهذا النمط من الكتابة القوية يمثل قدر البلاغة في أنفس الناس لذلك العهد: فهم يرون رسائل التهديد والوعيد طلائع من الأقلام تتقدم طلائع السيوف. وهذا في الواقع متابعة موفّقة لذلك العرف الذي سنَّه كتّاب الدولة الأموية وأقرّه كتّاب الدولة العباسية، وهو أسلوب في الدعاية كان يجري عن طريق الرسائل كما تجري الدعاية اليوم عن طريق الصحف السياسية. والدنيا هي الدنيا والناس هم الناس، وإن تغيرت طرائق التخويف والترهيب وفقاً لتغير وسائل النشر والتبليغ" [2].

ب. الرسائل الإخوانية أو الشخصية:

وهي رسائل مليئة بالعواطف والمشاعر، وفيها عتاب واعتذار وتهاني وغيره، وهي أقرب إلى الأدب من الرسائل الديوانية، "وهي تصور كثيراً من آراء الناس ومنازعهم وعاداتهم وأخلاقهم وأحوال الأمة التي يعيشون فيها" [3]. ومن رسائل

(1) الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج3، ص195.
(2) النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ج2، ص204.
(3) حسين، طه وآخرون، التوجيه الأدبي، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1952م، ص16.

ابن العميد في هذا المجال: رسائله إلى ابن أبي عبد الله الطبري [1]، ورسالته إلى أبي عبد الله المكي نديم عضد الدولة [2]. ورسالته إلى أبى دلف الخزرجي [3]. يقول الثعالبي: "ويقال إن أحسن رسائله في الإخوانيات، وما كاتب به أبا العلاء، لصدوره عن صدر مائل إليه محب له مناسب بالأدب إياه" [4]. ولهذا جعل زكي مبارك ميزة ابن العميد في إجادة الرسائل الإخوانية، حتى غدا في هذا الفن إماماً لمعاصريه كالميكالي والببغا وبديع الزمان "فقد كان له بين ضلوعه قلب وفيّ أمين، وكان يتحدث في الصداقات والمودات عن ود صادق ووفاء صريح" [5]. وليس هذا فحسب بل إن زكي مبارك يرى أن رسائله الشخصية فن من الشعر الوجداني البليغ، وهي عنده "قصائد منثورة في موضوعات شعرية ما كان يصلح لها غير القصيد"[6].

نختار في هذه المساحة رسالة من رسائله الإخوانيات، عاتب فيها بعض إخوانه:

"أنا أشكُو إليك -جعلني اللهُ فِدَاك- دهراً خؤوناً غَدُوراً، وزماناً خَدوعاً غَرُوراً، لا يمنحُ ما يمنح إلا رَيْثَ ما ينتزع، ولا يبقى فيما يهب إلا رَيْثَ ما يَرْتَجع، يبدو خَيْرُه لُمَعاً ثم ينقطع، ويَحْلو ماؤه جُرعاً ثم يَمتَنعُ. وكانت منه شيمةٌ مألوفة، وسجية معروفة، أن يشفع ما يُبْرِمُه بقُرْب انتقاض، ويُهْدِي لما يبسطه وَشْكَ انقباض، وكنا نَلْبَسُه على ما شرط وإن خان وقَسَط؛ ونَرْضى على الرغم بحكمه، ونَسْتَئِمّ بقَصْده وظلمه، ونعتدّ من أسباب المسرة ألا يجيء محذوره بلا انفرَاج، ولا يَأتي مكروهُه صِرْفاً بلا مزَاج، ونتعلّل بما نختلسه من غَفَلاته، ونَسْتَرِقُه من ساعاته. وقد استحدث غير ما عرفناه سُنّة مبتدعه، وشريعةً مُتّبَعة، وأعدَّ لكل صالحة من الفساد حالاً، وقَرَن بكلّ خَلَّة من المكروه خِلالاً.

(1) الحصري، أبو إسحاق، إبراهيم بن علي، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: د. صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، 2001م، ج3، ص-163 268، ج4، ص-177 179، ص237.
(2) التوحيدي، مثالب الوزيرين، ص-275 276.
(3) التوحيدي، مثالب الوزيرين، ص289.
(4) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج3، ص190.
(5) النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ج2، ص208.
(6) المرجع السابق، ج2، ص204.

وبيان ذلك -جعلني الله فِدّاك- أنه كان يَقْنَعُ من معارضته الإلفين، بتفريق ذات البَيْن، فقد انثنى ممْنُوّاً فيك بجميع ما أوغَرَه، وما أطويه من البَلْوَى منك أكْثَرُ مما أنشُرُه، وأحسبني ظَلَمْتُ الدهرَ بسوء الثناء عليه، وألزمته جُرماً لم يكن قدره بما يحيط به، وقدرته تَرْتَقِي إليه، ولو أنك أعَنْتَه وظاهَرْتَه، وقصدت صرفه وأزَزْتَه، وبعْتَني بيع الخَلَقِ وليس فيمن زَادَ ولكن فيمن نقص، ثم أعرضت عني إعراضَ غير مراجع، واطَّرحتني اطراحَ غير مُجامل؛ فهلاَّ وجدت نفسك أهلاً للجميل حين لم تجدْني هناك، وأَنْفَذْتَ من جلّ ما عقدت من غير جريمة، ونكثت ما عهدت من غير جريرة، فأجبني عن واحدة منهما؛ ما هذا التَّغَالي بنفسك، والتّعالي على صديقك؟ ولمَ نبَذْتَني نَبْذَ النّواة، وطرَحْتَني طَرْحَ القَذَاة؟ ولم تَلْفظني من فيك، وتمجُّني من حَلْقك؟ وأنا الحلال الحُلُو، والبارد العذب، كيف لا تُخْطرني ببالك خَطْرة، وتُصَيِّرني من أشغالك مرة، فترسل سلاماً إن لم تتجسم مُكَاتَبَة، وتَذْكرني فيمَنْ تَذْكُر إن لم تكن مخاطبة؟ وأحسب كتابي سَيَرِدُ عليك فتنكره حتى تَتَثَبَّت، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصوّر شخصه حتى تتذكّر، فقد صرت عندك ممن مَحَا النسيانُ صورتَه من صدرك، واسمَه من صحيفة حِفْظك ولعلك أيضاً تتعجب من طمعي فيك وقد تولّيت، واستمالتي لك وقد أبيت، ولا عجب فقد يتفجّر الصَّخْرُ بالماء الزلال، ويَلين مَنْ هو أقسى منك قلباً فيعود إلى الوصال، وآخر ما أقوله أنّ ودّي وَقْفٌ عليك، وَحَبْسٌ في سبيلك. ومتى عدت إليه وجدته غضّاً طرياً، فجرِّبه في المعاودة فإنه في العود أَحْمَدُ" [1].

تتلخص أهم ما اشتملت عليه هذه الرسالة في الآتي [2]:

1. لم يبدأ الرسالة بالمطالع المألوفة مما اعتاده الكتاب قبل عصره.
2. مزج السجع بغير السجع، متنقلاً بين فواصل وقواف حتى وصل إلى آخر الرسالة.

(1) الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، ج2، ص-301 302.
(2) مبارك، زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ج2، ص-207 209. والمقدسي، أنيس، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، ص253. كرد، محمد، أمراء البيان، ص570. والمرايطة، رامي عثمان، رسائل ابن العميد دراسة فنية، -91 93.

3. وشى الرسالة بالمحسنات البديعية كالجناس والطباق.
4. استخدم الصور البيانية كالتشبيه والاستعارة. فهو في أول الرسالة يشكو الدهر لغدره وخداعه وغروره، وهكذا شخص الدهر حتى صار عنده شخصاً فيه صفات الخير والشر، فهو يعطي ويمنع، ويهب وينتزع، ويحكم بالعدل وبالظلم وغير ذلك.
5. تمتاز بحرارة العاطفة وصدق المشاعر وهي دليل على الإخلاص والوفاء لأصدقائه.
6. لم يتقيد بخاتمة محددة مما كان سائداً قبله.

وقد انقسمت الرؤية النقدية حول هذه الرسالة إلى وجهتي نظر مختلفتين، فبينما يذهب المقدسي إلى أن ابن العميد مزج في هذه الرسالة بين السجع وغيره، وأكثر من الطباق والاطناب، ولكنه لم يصل إلى درجة الإسراف والتكلف كما يصنع معاصروه والذين جاءوا من بعد، مثل "الصاحب وقابوس والمعري والقاضي الفاضل وعماد الدين الأصفهاني ولسان الدين الخطيب وسواهم من السجاعين الذين قرنوا السجع بالبديع قرنا خرجوا به عن حدّ الاعتدال وتجاوزوا فيه مطالب البلاغة" [1].

نجد علي محمد كرد يعد هذه الرسالة من رسائل ابن العميد المسجوعة والمرسلة، أيضاً ولكنه يراها شبيهة بأساليب عشاق السجع من أهل جيله كالصاحب بن عباد وأبي بكر الخوارزمي والصابي، فلو أن ابن العميد اطرح أكثر هذه الأسجاع التي أتى بها في هذه الرسالة لاستقام له المعنى وخلص من لوثات التكلف والتعسف [2].

ج. الرسائل الأدبية:

الرسالة الأدبية يكتبها شخص ما في موضوع ما، لا تطول لتصبح كتاباً كبيراً، بل هي تشبه المقالة أو البحث القصير. وكانت الرسائل الأدبية في أول أمرها

(1) تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، ص253.
(2) أمراء البيان، ص570.

تشبه المراسلات العادية بين شخصين، ثم تطور المعنى مع مرور الزمان، فصارت تشمل القطع الأدبية المكتوبة لغرض خاص، كرسالة عبد الحميد الكاتب للكتاب، ورسالة التربيع والتدوير للجاحظ [1]. ويتميز الأسلوب في الرسائل الأدبية بحسن اختيار الألفاظ، وبراعة أداء المعاني، ووضوح الهدف، وزخرفة بديعية، وخيال واسع. وتلتقي الرسائل الأدبية مع الرسائل الإخوانية في كثير من الموضوعات والأغراض حتى عدها البعض جزءاً من الرسائل الإخوانية [2]. ومن رسائل ابن العميد في هذا المجال: رسالته في وصف سفن، وهي ليست موجهة لأحد [3]. ورسالته مبتهجاً بفتح حدث في ظل عضد الدولة [4]. ورسالته في شهر رمضان [5]. رسالته إلى من تزوجت أمه بعد وفاة أبيه [6].

نختار من رسائله الأدبية فصلاً من رسالته في شهر رمضان [7]: (كتابي -جعلني الله فداك- وأنا في كدٍّ وتعب، منذ فارقت شعبان وفي جهد ونصب من شهر رمضان، وفي العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر من ألم الجوع ووقع الصوم. ومرتهن بتعاعف حرور لو أن اللحم يصلى ببعضها غريضاً أتى أصحابه وهو منضج، وممتحن بهواجر يكاد أوارها يذيب دماغ الضبّ ويصرف وجه الحرباء عن التحنّق، ويزويه عن التبصر، ويقبض يده عن إمساك ساق وإرسال ساق (من البسيط):

ويترك الجاب[8] في شغلٍ عن الحقب ... ويقدح بين الجلد والعصب

(1) مهنا، علي جميل، الأدب في ظل الخلافة العباسية، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1981م، ص222.
(2) العلي، فيصل حسين، فن الترسل عند عبد الحميد الكاتب وابن العميد، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، 2001م، ص53.
(3) مردم، ابن العميد، ص86.
(4) المرجع السابق، ص87.
(5) الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج3، ص-190 192.
(6) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص477.
(7) الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج3، ص-190 192.
(8) الجاب: حمار الوحش.

ويغادر الوحش وقد مالت هواديها (من الطويل):

سجوداً لدى الأرطى كأنّ رؤوسها علاها صداعٌ أو فواقٌ يصورها

وكما قال الفرزدق (من الطويل):

ليوم أتت دون الظلال شموسه تظلُّ المها صوراً جماجمها تغلي

وكما قال مسكين الدارمي (من الطويل):

وهاجرةٍ ظلّت كأنَّ ظباءها إذا ما اتّقتها بالقرون سجودُ

تلوذ بشؤبوبٍ من الشمس فوقها كما لاذ من وخز السّنان طريد

وممنوٌّ بأيام تحاكي ظل الرمح طولاً، وليالٍ كإبهام القطاة قصراً، نوم كلا ولا قلة، وكسحو الطائر من ماء الثماد دقة، وكتصفيقة الطائر المستحرّ خفقة (من الطويل):

كما أبرقت قوماً عطاشاً غمامةٌ فلما رجوها أقشعتْ وتجلّت

وكنقر العصافير وهي خائفةٌ من النواطير يانع العنب)

تتلخص أهم ما اشتملت عليه هذه الرسالة في الآتي [1]:

1. ابتدأ الرسالة بالتحميد، كما أنه اختتمها بالحمد والشكر، فقال في آخرها: "ولله الحمد تقدست أسماؤه والشكر".
2. جمع فيها بين السجع وغيره. ووازن بين الجمل المسجوعة طولاً وقصراً
3. زينها بألوان البديع كالطباق، نحو: "الأدنى والأكبر"، و"إمساك وارسال"، و"غرضاً ومنضج" و"طولاً وقصراً". وأمثلة المقابلة نحو: "إمساك ساق وإرسال ساق"، و"طول الأيام وقصر الليالي"
4. الاقتباس من القرآن الكريم، في قوله: وفي العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر

(1) علي، محمد كرد، أمراء البيان، ص-570 571. والعلي، فن الترسل عند عبد الحميد الكاتب وابن العميد، -145 149. والمرايطة، رسائل ابن العميد دراسة فنية، ص-121 123.

لعلهم يرجعون ﴾ [السجدة: 21].

5. الاقتباس من شعره ومن شعر غيره.
6. حل المنظوم، فمثلاً قوله: "ممتحن بهواجر يكاد أوارها يذيب دماغ الضبّ"، فهو منثور من قول الفرزدق: تظلُّ المها صوراً جماجمها تغلي" وكذا الحال في بقية الأبيات التي استشهد بها.

يرى محمد كرد أن ابن العميد لم يسبق إلى موضوع هذه الرسالة، وأن رسالته هذه لو خلت من السجع والتطويل لكانت فريدة في بابها [1].

الحكم على رسائله:

يجمع القدماء على تقدمه وتفوقه في الكتابة وفنون الإنشاء والترسل، يقول مسكويه: "إنه من أكتب أهل عصره وأجمعهم لآلات الكتابة حفظاً للغة والغريب وتوسعاً في النحو والعروض واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام"" [2]. ويقول الثعالبي: إنه "أوحد العصر في الكتابة، يضرب به المثل في البلاغة، وينتهي إليه في الإشارة بالفصاحة والبراعة، مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها، إلى براعة المعاني ونفاستها، وكان يقال: بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد" [3]. ويقول ابن الأثير إنه كان محسناً في الكتابة حتى أتى فيها بكل بديع [4]، ويقول ابن العماد: إنه "كان آية في الترسل والإنشاء" [5].

أما النقاد المحدثون فإن حكمهم على أسلوب ابن العميد يسير في ثلاثة اتجاهات، يذهب أصحاب الاتجاه الأول إلى وسم أسلوبه فيما كتبه من رسائل بالصنعة والتزويق، يقول مردم: "إن أظهر ما في طريقة ابن العميد الصنعة الدقيقة

(1) علي، محمد كرد، أمراء البيان، ص571.
(2) تجارب الأمم، ج5، ص374.
(3) يتيمة الدهر، ج3، ص183.
(4) الكامل في التاريخ، ج7، ص320.
(5) شذرات الذهب ج4، ص312.

والزخرف في المفردات والجمل والعناية باختيار الكلام السهل المصقول والقصد إلى الأسجاع الرنانة والإدلال بسعة الرواية من حيث الاقتباس والتمثل والاستشهاد بكلام العرب" [1]. ويرى ضيف أن ابن العميد أستاذ مذهب التصنيع؛ لأنه أول كاتب –بحسب زعمه– "احتكم إلى السجع في كتابته، كما احتكم إلي البديع من جناس وطباق وتصوير" [2]. وإلى هذا الرأي ذهب زيدان قائلاً: "وهو أسبق المنشئين إلى أسلوب ذلك العصر، فقد أجاد فيه فقلدوه ونسجوا على منواله" [3]. ويقصد بأسلوب العصر أسلوب الصنعة.

يذهب أصحاب الاتجاه الثاني إلى طبعه وقوة ملكته، يقول مبارك: "فإننا حين نقرأ نثره نجد أنفسنا أمام عظمة عقلية يخرّ لها الجبابرة ساجدين. وهو حين يكتب لا يطالعك بفنّه كما كان يفعل معاصروه، وإنما يطالعك بقلبه وروحه وعقله بحيث تبدو كلّ كلمة من كلماته وكأنها قلب يخفق أو روح يثور. فليست الكتابة عند ابن العميد زخرفاً براقاً يلهو به ولا ثروة لغوية يكاثر بها الكتاب، ولكن الكتابة عنده ثورة عقلية أو وجدانية يرمي بها البركان بأقباس الهلاك. وقد يرق فتحسب نثره نجوى حبيبين في هدأه الليل وهو في رقته وجزالته وغضبه وحنانه عبقري لا يعبث برجع الحديث المعاد، وإنما يجدّ بابداع الرأي الصائب والقول الرصين" [4].

ويتبنى أصحاب الاتجاه الثالث رأياً وسطاً فيجعلون أسلوبه في منزلة وسطى بين الطبع والتصنيع، يقول: فروخ: "وابن العميد صاحب مذهب في الكتابة وهو مزيج من أسلوب ابن المقفع وأسلوب الجاحظ مع التوسع في الصناعة والميل إلى التكلف" [5]، أي هو أسلوب مزيج من أسلوب ابن المقفع الذي ينفر من استخدام السجع والبديع إلا ما جاء منه عفو الخاطر، وأسلوب الجاحظ المعتمد على الصناعة

(1) ابن العميد، ص45.
(2) الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص209.
(3) تاريخ آداب اللغة العربية، دار الهلال، دون تاريخ، ج2، ص272.
(4) زكي، النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ج2، ص202.
(5) تاريخ الأدب العربي (الأعصر العباسية إلى نهاية القرن الرابع الهجري)، ج2، ص500.

والتنميق. يقول مبارك: "والمعروف عن ابن المقفع أنه لا يلتزم السجع، وأنه أكثر كتاب العصر الأموي حرية في صوغ الجملة، ولكن يتفق له أحياناً أن يرصع كلامه على منهج الوزن في السجع" [1]، ويقول الزيات: إن طريقة ابن المقفع في الكتابة تقوم على "تنويع العبارة، وتقطيع الجملة، والمزاوجة بين الكلمات، وتوخي السهولة، والعناية بالمعنى، والزهد في السجع" [2]. أما ضيف فإنه يصف أسلوب ابن المقفع بأنه "واضح شفاف، ليس فيه تعقيد ولا إغراب، وإنما فيه الاسترسال العذب، وفيه الألفاظ القريبة والعبارات المبسطة حسب الأغراض والمعاني التي كان ينقلها، وكان ينفر نفوراً شديداً من الإغراب في اللفظ والتوعر فيه" [3]. أما الطابع العام في كتابة الجاحظ فهي العناية بالألفاظ والمعاني والأساليب عناية من شأنها أن تجعله يدقق في انتخاب ألفاظه وأن يقطع عباراته تقطيعات صوتية طريفة، وهي تقطيعات انزلقت به إلى فنون من التكرار الموسيقي، كي تتم له الموازنة بين لفظه ومعناه، تلك الموازنة التي انتهت به إلى أن يعشق الأداء الدقيق لمعانيه وأن يعشق معه الوصف الحسي الصحيح لما شاهد" [4]. ويقول الزيات إن طريقة الجاحظ "تمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقفاة أو مرسلة، وزيادة الإطناب في الألفاظ والجمل، والاستطراد، ومزج الجد بالهزل لدفع سآمة القارىء، وتحليل المعنى واستقصائه، وتحكيم العقل والمنطق، والاعتراض بالجمل الدعائية" [5].

ولذلك يجعل أصحاب هذا الاتجاه أسلوب ابن العميد في منزلة وسطى بين الصنعة والتصنيع، ومن ذلك ما ذهب إليه مارون عبود الذي يرى أن الصناعة والبديع في أسلوب ابن العميد أقرب إلى الطبع منه إلى التكلف، فهو يرى أن ابن العميد هو "أول من فتح باب الولوع بالرسائل البديعية، متوخياً فيها السجع القصير الفقرات،

(1) النثر الفني في القرن الرابع، ج1، ص71-72.
(2) تاريخ الأدب العربي، ص217.
(3) الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص143.
(4) الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص162.
(5) تاريخ الأدب العربي، ص217.

مقتبساً الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة، مشيراً إلى الحوادث التاريخية المشهورة، ناثراً الأبيات الحكمية مؤثراً الحلية البديعية، كالجناس والمطابقة، مضمناً الأمثال السائرة. وقد حاكاه فحول عصره وأخذوا عنه وقلدوه، إلا أنه أقل سجعاً منهم وأقرب إلى الطبع"[1] . ويميل الباحثان إلى الاتجاه الأخير.

شعر ابن العميد:

وجد ديوان شعر ابن العميد نفس مصير رسائله ومؤلفاته من الإندثار والضياع، وقد حفظت بعض كتب الأدب والتاريخ والتراجم مجموعة طيبة من شعره تصلح لأن تعطينا صورة وافية عن شعره، وقد نصت هذه الكتب على شهرة شعره وانتشاره في الآفاق. وأعجب ما رأيت في هذا الأمر، أن معاصره أبا حيان التوحيدي وموقفه منه معروف، يُقر بجودة شعره وسيرورته، قائلاً: "وله شعر صالح في الغزل والمعاتبة، ولأنه مشهور لا طائل في روايته" [2].

وكان أغلب ما روته هذه الكتب من أشعاره في الإخوانيات، كما أنها روت له بعض الأشعار في الأغراض الأخري، كالغزل والشكوى والهجاء والوصف والحكمة والمعميات والألغاز، فمن مشهور شعره في الإخوانيات، ما كتبه في معاتبة أبي الحسن العباسي وقد حصلت بينهما جفوة، نختار منها (من الكامل) [3] :

قد ذبت غير حشاشة وذماء	ما بين حرٍّ هوىً وحرٍّ هواء
لا أستفيق من الغرام ولا أرىَ	خلواً من الأشجان والبرحاءَ
وصروف أيام أقمن قيامتي	بنوى الخليط وفرقة القرناءَ
أبلغ رسالتي الشريف وقلْ له	(قدك اتئب أربيت في الغلواء)
أنت الذي شتت شمل مسرتي	وقدحت نار الشوق في أحشائي
وجمعت بين مساءتي ومسرتي	وقرنت بين مبرّتي وجفائي
ونبذت حق عشيرتي ومودتي	وهرقت مائي خلّتي وإخائي
وثنيت آمالي على أدراجها	ورددت خائبة وفود رجائي

(1) أدب العرب "مختصر تاريخ نشأته وتطوره وسير مشاهير رجاله وخطوط أولى من صورهم، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص222.
(2) مثالب الوزيرين أخلاق الصاحب بن عباد وابن العميد، ص226.
(3) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج3، ص203.

فرجعت عنك بما يؤوب بمثله ... راجي السراب بقفرة بيداء
وعرضت ودّي بالحقير ولم أكنْ ... ممّن يباع وداده بلقاء
ورضيت بالثمن اليسير معوضة ... منّي، فهلا بعتني بغلاء
وسألتك العتبى فلم ترني لها ... أهلاً، وجئت بغدرة الشوهاء

فهذا الشعر هو السحر الحلال، وهو يجمع عذوبة الألفاظ ووضوح المعاني وجمال التصوير وصدق العاطفة ورقة الإحساس، ولا يبعد الثعالبي عن الصواب حين رأى أن هذه القصيدة من قصائده السائرة في الآفاق، وأنه قد جمع فيه أكثر إحسانه [1].

ومن شعره في الشكوى ما كتبه إلى أبي الحسن العباسي (من البسيط)[2]:

أشكو إليك زماناً ظلّ يعركني ... عرك الأديم ومن يعدي على الزمن
وصباحا كنت مغبوطا بصحبته ... دهراً فغادرني فرداً بلا سكن
هبّتْ له ريح إقبال فطار بها ... نحو السرور وألجأني إلى الحزن
نأى بجانبه عنّي وصيّرني ... من الأسى ودواعي الشوق في قرن
وباع صفو وداد كنت أقصره ... عليه مجتهداً في السر والعلن
وكان غالى به حيناً فأرخصه ... يا من رأى صفو ودٍّ بيع بالثمن
كأنه كان مطوياً على إحن ... ولم يكن في ضروب الشعر أنشدني
إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا ... من كان يألفهم في المنزل الخشن

وقد استحق بمثل هذه القصيدة وغيرها أن يسلكه القفطي ضمن كتابه "الشعراء المحمدون"، وقد أوردها برواية مختلفة عن رواية الثعالبي، وقال عنها إنها من مشهور شعره [3]. كما يرى الثعالبي كذلك أنها من شعره المشهور الجيد[4].

ومن جيد شعره في الغزل الأبيات السائرة المتداولة، وهي قوله (من الكامل) [5]:

ظَلَّتْ تظلّلني من الشمسِ ... نفْسٌ أعزُّ عليَّ من نفسي
فأقول وا عجباً ومن عجبٍ ... شمسٌ تظللني من الشمس

(1) المرجع السابق، ج3، ص203.
(2) المرجع السابق، ج3، ص201.
(3) القفطي، علي بن يوسف، الشعراء المحمدون وأشعارهم، تحقيق: حسن معمري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة باريس، 1970م، ص251.
(4) يتيمة الدهر، ج3، ص201.
(5) المرجع السابق، ج3، ص209.

ومن قوله في الهجاء ما قاله في هجاء المغني القرشي (من مجزوء الوافر) [1]:

إذا غناني القرشـــي دعوت الله بالطـــرشِ
وإن أبصرت طلعتـــه فوا لهفي على العمشِ

يرى بعض الدارسين أن هجاء ابن العميد في البيتين السابقين يتصف بالبعد عن الألفاظ الفاحشة والعبارات النابئة التي عادة ما يعتمد عليها شعر الهجاء، فهو ينكر في هذين البيتين على هذا المغنى قبح الصوت وسوء المظهر، وهما من المقومات الأساسية التي ينبغي توافرهما فيمن يتصدى للغناء، وبافتقادهما يفقد هذا المغني قوة التأثير في الآخرين [2].

أما الحكم النقدي على شعره، فقد رأينا آنفاً شبه إجماع من مترجميه على جودة شعره وشهرته وشيوعه، ولم يشذ عن هؤلاء القدماء الذين عاصروه والذين جاءوا من بعدهم ممن ترجم له، إلا ابن خلكان وابن العماد، يقول ابن خلكان: "ولابن العميد شعر، وما أعجبني الذي وقفت عليه منه حتى أثبته" [3]، ويذهب ابن العماد إلى أن شعره متوسط [4]. وهما يستشهدان على ذلك بمقطوعة من شعره، وهي قوله (من المنسرح) [5]:

رأيتُ في الوجه طاقة بقيتْ سوداءَ عَيْني تُحبُّ رُؤْيَتَهَا
فقلت للبيضَ إذ تروِّعها بالله إلَّا رَحِمْتَ وَحْدَتَهَا
فقلَّ لبثُ السّوداءِ في وطنٍ تكونُ فيه البَيضَاءُ ضرَّتها

فوجود مقطوعة متوسطة أو أكثر لا يعني أن شعره كله كذلك، ومَنْ مِنْ الشعراء مَنْ كان شعره كله في مرتبة الجودة والإتقان، وليس في شعره ما كان وسطاً أو دون الوسط أو مرذولاً. فلم ينج من هذا حتى كبار الشعراء في كل العصور الأدبية.

(1) المرجع السابق، ج3، ص211.
(2) المهداوي، أ.د/ محمد حسين؛ والبيضاني، د. فهد نعيمة، أدب أبي الفضل ابن العميد (ن 360هـ) جمع وتحقيق ودراسة، دار الفرات للثقافة والإعلام، بابل، العراق، 2018م، ص25.
(3) وفيات الأعيان، ج5، ص109.
(4) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج4، ص316.
(5) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص109. وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج4، ص316.

نختم رأي القدماء في شعره بشهادة مسكويه –وهو من معاصريه– الذي يذهب إلى علو طبقته في النثر والشعر معاً، فيقول: "وأما كتابته فمعروفة من رسائله المدونة ومن كان مترسلاً لم يخف عليه علو طبقته فيها، وكذلك شعره الذي جد فيه وهزل فإنه في أعلى درجات الشعر وأرفع منازله" (1).

أما النقاد المحدثون مع اعترافهم بشاعريته وصحة طبعه، فقد أجمعوا على وسم شعره بالصناعة والتكلف، حتى غدا حكمهم على شعره مضطرباً، فانظر إلى هذا الاضطراب فيما ذهبو إليه، وفي مقدمة هؤلاء خليل مردم، فهو لا ينكر صحة طبع هذا الشاعر وعذوبة شعره وتسلسله، ولكنه مع ذلك يصف شعره بالصنعة والتكلف، قائلاً: "وشعر ابن العميد من الشعر المصنوع المتكلف في صوغه وتزويقه، فيه كثير من الاستعارة والتشبيه والمحسنات المعنوية واللفظية على نحو ما في نثره. حلو الألفاظ سهل التركيب ولكن يقل فيه إلهام الشاعر، على أن نفوذ بصره في اختيار الكلام وصحة ذوقه في اجتناب الوحشي المستكره تجعل شعره عذباً متسلسلاً" (2). وإننا نجد هذا الاضطراب في حكم مارون عبود الذي يرى أن لابن العميد شعر رائق، "إلا أن صبغة النثر والعلم تظهران فيه" (3)، وكذلك عمر فروخ، فهو من جهة يرى أن في شعر ابن العميد شيء من الطبع والرونق، ومن جهة أخرى يرى أن شعره مثقل بالصناعة والتكلف، ويجعله في مرتبة أقل من نثره (4).

فربما يكون مصدر هذه الأحكام مبنياً على ذيوع شهرة ابن العميد بالكتابة أكثر من الشعر، وإلا كيف نفسر وصفه بالصنعة والتكلف، وما أثبتانه من شعره يدحض ذلك، وما رواه الثعالبي عن إسماح خاطره بقول الشعر دون أدنى قصد منه، وقدرته على تحويل جميع كلامه إلى شعر، ومن ذلك مثلاً المجالس الشعرية

(1) تجارب الأمم، ج5، ص375.
(2) ابن العميد، 61.
(3) أدب العرب "مختصر تاريخ نشأته وتطوره وسير مشاهير رجاله وخطوط أولى من صورهم، مص222.
(4) تاريخ الأدب العربي (الأعصر العباسية إلى نهاية القرن الرابع الهجري)، ج2 ص501.

التي جمعته مع كبار أدباء عصره الذين كان بينه وبينهم مكاتبات وإهداءات بالشعر ومقارضات مرتجلة، وفيها ما يدل على طبعه السليم وقريحته المواتية، فقد روى الثعالبي عن مجلس اجتمع فيه عنده أبو محمد هندو، وأبو القاسم بن أبي الحسين سعد، وأبو الحسين بن فارس، وأبو عبد الله الطبري، وأبو الحسن البديهي، وسئل بعض حاضري هذا المجلس عن قصة له، فقال ابن العميد ولم يقصد وزناً (من مجزوء الخفيف):

أيّ جهد لقيته وشقاء شقيته؟

ثم طلب منهم أن يقولوا على هذا الوزن شعراً [1]. فهذه القصة تؤيد ما نذهب إليه من صحة طبعه وإسماح خاطره وقوة إلهامه.

(1) يتيمة الدهر، ج3، 207.

خاتمة

فقد عرضنا في هذه الدراسة مشاركة ابن العميد في الحياة السياسية والأدبية في القرن الرابع الهجري، وأوضحنا في الجانب السياسي كيفية تصريفه للشؤون السياسية، وقيامه بأعباء العمل الوزاري والعسكري. أما في المجال الأدبي لابن العميد فقد اقتصرنا على دراسة نتاجه الأدبي، وقدمنا نماذج من رسائله وأشعاره، ثم بيّنا الحكم النقدي القديم والحديث على أسلوبه في النثر والنظم. وخلصنا إلى النتائج الآتية:

1. لابن العميد معرفة تامة بإدراة شؤون الوزارة، وخبرة واسعة بسياسة الجند وقيادة الجيوش، وبصيرة نافذة في خطط الحروب ومكائدها.
2. من أهم أعماله في الوزارة، إعادته لهيبة ركن الدولة في نفوس الجند والرعية، وضبط أموره، وترتيب أسباب خدمته.
3. استطاع ابن العميد ببراعة في قيادة العمليات العسكرية وإخماده لنار الفتنة وقمعه لروح العصيان والتمرد من توطيد ملك ركن الدولة وتثبيت أركانه.
4. وظف ابن العميد قدراته البلاغية في معالجة الأمور السياسية، يستغني بذلك في بعض الأحيان عن قيادة الكتائب.
5. تُظهر الرسائل الرسمية لابن العميد قوة شخصيته وتصرفه الواسع في إدراة أمور الحكم.
6. تتمثل أهم سمات الأسلوب في رسائل ابن العميد، في مزجه السجع بغيره والموازنة بين سجعاته طولاً وقصراً، وعنايته بالألوان البديعية، وعدم تقيده بعبارات خاصة في بداية الرسائل ونهايتها.
7. تُعد الكتابة من أبرز الجوانب التي أحاط بها ابن العميد.
8. إن أجود ما انتجه ابن العميد من نثره وشعره كان مجال الإخوانيات.

9. لابن العميد شعر لا يقل في روعته وجماله عن رسائله.
10. لذيوع شهرة ابن العميد في مجال الكتابة والترسل أثر كبير في طمس شخصيته في المجالات الأخرى.

التوصيات:

1. دراسة جوانب أخرى من شخصية ابن العميد، كالنقد الأدبي مثلاً.
2. إجراء مزيد من الدراسات حول الأمراء والوزراء البويهيين الذين جمعوا بين السياسة والعلم والأدب.

المصادر والمراجع

1. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، الكامل في التاريخ، راجعه وصححه: د. محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.
2. إقبال، عباس، إيران بعد الإسلام، ترجمة وتحقيق: د. محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة، القاهرة، 1989م.
3. أمين، أحمد، ظهر الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.
4. براون، إدوارد، الأدب العربي في إيران، تحقيق: د. أحمد كمال الدين حلمي، كلية الآداب، جامعة الكويت، 1998م.
5. البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م.
6. التوحيدي، أبو حيان، مثالب الوزيرين، تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، 1961م.
7. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: د.مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م.
8. حسين، طه وآخرون، التوجيه الأدبي، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1952م.
9. الحصري، أبو إسحاق، إبراهيم بن علي، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: د. صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، 2001م.
10. الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، تحقيق: د.إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993م،.
11. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار صادر، بيروت، دون تاريخ،

12. الزهيري، محمود غناوي، الأدب في ظل بني بويه، مطبعة الأمانة، مصر، 1949م.
13. الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر، القاهرة.
14. الشبستري، عبد الحسين، مشاهير شعراء الشيعة، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، المكتبة الأدبية المختصة، 1420هـ.
15. أبو شجاع، محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله، ذيل تجارب الأمم، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.
16. ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط9، دار المعارف، دون تاريخ.
17. ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العرب (عصر الدول والإمارات، الجزيرة العربية العراق إيران)، ج5، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1980م.
18. طبانة، د. بدوي، الصاحب بن عباد الوزير الأديب العالم، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1963م.
19. طقوش، د. محمد سهيل، تاريخ الدولة العباسية، ط7، دار النفائس، بيروت، 2009م.
20. العباسي، عبد الرحيم بن أحمد، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، 1947م.
21. عبود، مارون، أدب العرب "مختصر تاريخ نشأته وتطوره وسير مشاهير رجاله وخطوط أولى من صورهم، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.
22. العلي، فيصل حسين، فن الترسل عند عبد الحميد الكاتب وابن العميد، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، 2001م.
23. علي، محمد كرد، أمراء البيان، ط1، دار الثقافة الدينية، القاهرة، 2012م.

24. ابن العماد، الإمام شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، 1989م.
25. فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي الأعصر العباسية، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1981م.
26. القفطي، علي بن يوسف، الشعراء المحمدون وأشعارهم، تحقيق: حسن معمري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة باريس، 1970م.
27. كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993م.
28. مبارك، زكي، النثر الفني في القرن الرابع الهجري، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، دون تاريخ.
29. محمود، د. أحمد عبد العزيز، وولي، د. هلز عنتر، ابن العميد الوزير البويهي: شخصيته وعصره، مجلة جامعة صلاح الدين، مجلد19، العدد4، ص28..
30. المرايطة، رامي عثمان، رسائل ابن العميد دراسة فنية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2008م.
31. مردم، خليل، ابن العميد، مكتبة عرفة، دمشق، 1931م
32. مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق: سيِّد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م.
33. المقدسي، أنيس، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، 1960م،.
34. المهداوي، أ.د/ محمد حسين؛ والبيضاني، د. فهد نعيمة، أدب أبي الفضل ابن العميد (ن 360هـ) جمع وتحقيق ودراسة، دار الفرات للثقافة والإعلام، بابل،

العراق، 2018م.

35. مهنا، علي جميل، الأدب في ظل الخلافة العباسية، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1981م.

36. ابن النديم، محمد بن إسحق، الفهرست، تحقيق: رضا – تجدد، دون تاريخ.

37. نصار، حسين، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1954م.